obeikandl.com

obeikandl.com

قصتي مع الأغنية

ما أجمل أن يستطيع الإنسان العودة بعمره إلى الوراء بضع عشرات من السنين..

وقد رجعت أنا بعمري عشرات السنين فعلًا ... والذي استطاع أن يهيئ هذه الفرصة لي، واحد من قرائي كتب يسألني:

- متى بدأت تتجه إلى كتابة الأغنية؟
- وما هي أول أغنية كتبتها؟
- ومن الذي لحنها .. والذي غناها؟

والحقيقة أن هذه الأسئلة تردني إلى عهد الطفولة المبكرة .. إلى سن الثامنة أو التاسعة .. حينما بدأت أقرأ شعر شوقي.. وأحاول أن أقلده وأنظم على غراره.

وفي الثانية عشرة – وأنا طالب بالمدرسة الثانوية – كنت من هواة التمثيل، وهي هواية صاحبتني أكثر من عشر سنوات، إلى أن وضع الفنان العظيم جورج أبيض، رحمه الله، نهاية لها في موقف عاصف.

ولا بأس من رواية هذه القصة، قبل أن استطرد في حديثي عن الأغنية.

كنت في المدرسة الثانوية عضوًا بفريق التمثيل.

وكبرت الهواية عندي وأنا بالجامعة.

وكنت أحب جورج أبيض، وأتردد على مسرحه دائمًا، ويطيب لي أن أتسلل وراء الكواليس، لأراه في مقصورته وهو يتأهب لأداء دوره، ولأراه بعد أن ينتهي من أداء الدور.

كان شيئًا فريدًا حقا ..

الهلال: مارس ١٩٦٣

كان إذا هم بتمثيل دور لويس الحادي عشر، مثلًا، يذهب إلى المسرح مبكرًا، ويلبس ملابس الدور، ويضع مكياجه، ثم يدخل إلى مقصورته، ولا يسمح لأي مخلوق أن يدخل عليه .. ولكنه كان يترك باب المقصورة مفتوحًا ..

وهكذا أتيح لي أن أراه من بعيد عشرات المرات، في طور التأهب لعشرات من الأدوار.

كان يدخل المقصورة، ويجلس أمام المرآة الكبيرة التي فيها، ويحملق .. ويحملق .. ويحملق في نفسه ... وفي ملابسه .. وفي التاج الذي يعلو رأسه .. إلى أن يتقمص الدور، ويخيل له أنه أصبح ملكًا، وأنه هو لويس الحادي عشر بالفعل.

ويبدأ يغمغم ويهمهم، كأنه يعاني إرهاص رسالة الملك .. ويستمر في الغمغمة والهمهمة بصوت غير مفهوم .. نصف ساعة .. وأحيانًا ساعة كاملة .. يردد في خلالها بعض العبارات الطويلة من دوره.

ويستمر هكذا إلى أن يسمع دقات المسرح الثلاث .. إيذانا بارتفاع الستارة فينهض من مكانه متجهًا إلى خشبة المسرح وئيد الخطي، لا يتلفت حوله، ولا يكلم أحدًا ولا يكلمه أحد، ويدخل المسرح .. وقد نسي تمامًا أنه جورج أبيض.

كان التمثيل عنده نوعًا من تقمص الشخصية وحلول الأرواح ....

كنت مفتونًا برؤية هذا المشهد كل ليلة ..!

ومن هنا نشأت الصداقة بيني وبينه.

وحينما تخرجت في الجامعة ..

كان جورج يبني مسرحة – الذي تحول إلى سينما فيما بعد – بحدائق القبة.

وكنت في بيته نتحدث عما هو فاعل بهذا المسرح، فقال لي أنه يزمع أن يقدم عليه بعض مشاهد من مسرحياته الكبرى، بمشاركة بعض الهواة ومنهم ابنته "سعاد".

وقال لي ذات ليلة : "أنت هاوي تمثيل، فلماذا لا تشترك معنا.

ولم أتردد .. وقبلت الدعوة على الفور واخترت مشهدًا من لويس الحادي عشر،

ليس فيه إلا ثلاثة ممثلين، هو وسعاد وأنا وكان من نصيبي دور "نيمور" وبدأنا "البروفات" اليومية...

ومنذ أول لحظة .. قال لي جورج: عظيم ... عظيم جدًا ... أن مستقبلك في عالم المسرح لا في الصحافة ... ولا في الشعر ... ولا في الاقتصاد ..

وأضاف كلمة الاقتصاد، لأنه كان يعلم أنني متخرج في كلية التجارة.

وبدأ الموسم ..

ومرت الليلة الأولى ... عال والليلة الثانية .. أحسن منها!

وفي الليلة الثالثة .. حدث ما لم يكن في حسبان أحد.

وجدت نفسي على المسرح، وقد نسيت دوري تمامًا، فلم أعد أذكر كلمة واحدة!

كنت مع سعاد على المسرح، وكان جورج وراء الكواليس.

وصاح بي: "تكلم ...."

ولم أتكلم

وعلا صوته من وراء الكواليس، وكان رحمه الله إذا غضب يتكلم باللهجة الشامية .. قال:

- ولاك أنطق يا أزعر.

وازداد اضطرابي، وأردت أن أخفف حدة توتري بتدخين سيجارة، فأخرجت من جيبي علبة سجاير "لاكي سترايك" ... وبدأت أدخن.

وجن جنون جورج من وراء الكواليس، وصاح بي .. بنفس اللهجة:

- يخرب بيتك ... يخرب بيتك .. ما كان فيه سجاير لاكي سترايك بزمان لويس الحادي عشر.

وأنقذت زوجته الرقيقة، السيدة دولت أبيض، أطال الله بقاءها، موقفي .. بان قامت بدور الملقن من وراء الكواليس، فعادت لي الذاكرة .. ومرت الليلة.

ولكني لم أقف على المسرح منذ تلك الليلة – حوالي سنة ١٩٤٠ – إلى الأبد .. أبدا!

وانغمست في كتابه الشعر العاطفي حتى نسيت دراستي وأفقت من غفوتي لعبارة كتبها والدي هي: "دع عنك هذا الهراء"، وتفرغ لدروسك يا ولدي"

وعدت من المدرسة، وقرأت هذه العبارة، وأحسست بالخجل، فمزقت الكراسة كلها.

وكأني مزقت معها حبي الأول ... حبي الذي ولد ومات في الوهم.

ونسيت خيرية

أنا ... ورامي

ومرت سنوات كثيرة، اتجهت فيها للشعر، وللشعر وحده، إلى أن تخرجت في الجامعة.

وكان صديقي رامي، كلما لقيني يقول لي:

– أهلًا بالشاعر الذي لم يزجل يقصد أنني لم أقل زجلًا .. ولم أنظم أغنية عامية..

والحقيقة التي قد لا يعرفها أحد، أن رامي خلق شاعرًا، وليس زجالًا.

وكان شعره في مطلع شبابه خليقًا بأن يصل به إلى مرتبة أمير الشعراء، لولا تعلقه بأم كلثوم منذ طلوع فجرها، مما حوله إلى نظم الأغنية الدارجة.

ورامي اليوم حزين على ما فات من عمره في نظم الأغنية، وإنه ليذكر لي فضلًا عليه، هو أنني أنا الذي حاربت فيه نظم الأغنية الدارجة في السنوات الأخيرة، ودعوته بإلحاح إلى العودة للشعر .. فعاد .. ونظم في العامين الأخيرين أكثر من عشرين قصيدة من عيون الشعر، أخص بالذكر منها قصيدته في مهرجان الشعر الأخير بالإسكندرية، التي جاءت من أجمل نماذج الشعر في هذا الجيل. ومطلعها:

ذكرت شبابي – وما قد لقى ... على شاطئ الأبيض الأزرق

زمان خطرت على رمله ... أجر ذيول الصبا المونق

مع الليل من مغرب ساحر ... إلى الفجر في مطلع مشرق

أهـــيم مـــع المـــوج في كـــره ... متـــي يتفـــرق أو يلتقـــي
وأسرى مـع الـنجم عـبر السماء ... تهـادي عـلى صـفحة الزئبـق
خليـا مـن الهـم، طلـق العنـان ... مراحـي عـلى الـورد والزنبـق
ومـاذا عـليّ، وظـل الـشباب ... نـديٌّ يـرف عـلى زورقـي

أقول .. كان رامي يطالعني دائمًا بهذه التحية : "أهلًا بالشاعر الذي لم يزجل" .. وكنت أحس بأنه يفخر بي حين يقول هذا ..

وهكذا كنت أفخر بنفسي، مع أنني لا أكسب من الشعر شيئًا، في حين أستطيع أن أكسب من الأغنية شهرة ومالًا وجمهورًا كثيرًا.

وذات يوم .. وكنت يومئذ مديرًا للدعاية في بنك مصر .. دخل على الريجسير المعروف قاسم وجدي، وقال لي:

- ألحقنا .. نحن في ورطة.

- خيرًا .

- هناك أغنية تلعب دورًا هامًا في فيلم يجرى تصويره الآن في ستوديو مصر. ولابد من تسجيلها الليلة.

- وما هو المطلوب مني؟

- أن تنظم الأغنية.

- ولكنى لا أنظم الأغاني الدارجة.

- نعم .. ولكنك تستطيع.

- يا سيدي .. لا

- يا سيدي .. أيوه .. إن كمال سليم يرجوك!

وكان بي ضعف لكمال سليم .. فلم أستطع أن أقول لا، ولا سيما حينما عرفت أن الأغنية لابد أن تؤلف وتلحن وتسجل في نفس الليلة، وأنها لا تعتبر أغنية عادية، بل أنها

تقوم بدور بطولي في القصة، وتتكرر ثلاث مرات، وفي مبناها مفتاح هام من مفاتيح الدراما في القصة.

قلت لقاسم وجدي: "ومن الذي سيغنيها؟ "قال : "فاطمة رشدي".

وإذا كنتم تذكرون فيلم "العزيمة" .. لذي لا يزال يعد أعظم فيلم في تاريخ السينما المصرية مع إنه أنتج منذ عشرين سنة، فاذكروا أن أول أغنية دارجة نظمتها وخرجت إلى النور، هي أغنية:

يـــا بلبلـــين في الهـــوا　　خـــايفين مـــن العـــاذل
قالـــت عيـــونهم ســـوا　　امتـــى حانتقابـــل

التي غنتها فاطمة رشدي في ذلك الفيلم .. وقد لحنها رياض السنباطي.

وللحقيقة والتاريخ، أقول أن فاطمة رشدي غنتها بطريقة "الدوبلاج" ... أعنى أنها كانت تهمهم بشفتيها فقط .. ووراءها صوت مطربة اسمها آمال حسين.

بقى سؤال .. قد يوجهه لي يومًا ما القارئ الذي أثار كل هذه الذكريات:

- كم تقاضيت من ستوديو مصر ثمنًا لهذه الأغنية؟

والجواب: ولا مليم .. لقد كنت يومئذ هاويًا .. قبل أن يأتي زمان الاحتراف.

وهنا .. لابد أن أعود إلى حديث أبي: رحمه الله .. الذي كتب لي عبارة "دع عنك هذا الهراء، وتفرغ لدروسك يا ولدي" كان رحمه الله على حق ..

فقد كان سعر الأغنية في زمانه جنيهًا واحدًا!

هكذا ذكر لي رامي .. الذي لا يزال يملك فونغرافا قديمًا، اشتراه من شركة بيضافون بعشرة جنيهات، لم يدفعها، لأنه جعل الثمن مقابل من أغنياته لأم كلثوم.. منها "إن كنت أسامح" و"الشك يحيى الغرام" و"أيها الفلك على وشك الرحيل" وغيرها وغيرها .. سجلتها له شركة بيضافون، وطبعت منها أكثر من مليون أسطوانة .. وقدمت له مقابل ذلك ورقة بعشرة جنيهات .. اشترى بها الفونوغراف!.

بعيدًا عن الجنس اللطيف ..!

لا أظن أن كثيرًا من القراء قد عاش هذه التجربة التي عشناها، مهدي علام ويوسف السباعي ونجيب محفوظ وأنيس منصور ومحمود حسن إسماعيل .. وأنا خمسة عشر يومًا في الطريق إلى اليمن، ومن اليمن، وفي اليمن ذاتها.

التجربة مثيرة في كل خطوة منها:

في البحر الأحمر بشعابه المرجانية الهوجاء ..

في الحديدة، حيث تصعد الحرارة إلى خمسين درجة، وحيث يصاب المرء بضربة الشمس وهو في الظل!

في صنعاء حيث يباع الماء المثلج في سوق خاصة .. الكوبة بقرش.

في مأرب، حيث تتناثر أشلاء مملكة سبأ خلف أسوار النسيان.

في تعز، حيث يتساقط المطر في عز الصيف، وحيث تشارف العين مناظر جبلية خضراء ذات عيون وينابيع لا تقل عن فتنة لبنان!

التجربة مثيرة من كل زاوية ..

خمسة عشر يومًا، على ظهر الباخرة، وفي مختلف ربوع اليمن، لم تقع خلالها عين أحد منا على امرأة، ولا سمعنا خلالها صوت امرأة!

تجربة مثيرة، أن يعيش الإنسان خمسة عشر يومًا بلا امرأة.

ذلك أن المرأة اليمنية لا تزال محجبة، تتحرك في الطريق تحت بردة كأنها خيمة اسطوانية لا يبدو منها إلا بصيص ضئيل من عينيها تتلمس به الطريق.

وقد عشت طول حياتي في وهم كبير ... كنت أحسب أن الحياة لا تحتمل بغير المرأة.

ولكني خرجت من تجربة اليمن بأن الحياة ممكنة، ومحتملة جدًا بغير المرأة!

بل خرجت من تجربة اليمن بأن الرجل يجب أن يعيش فترة من كل سنة، لا تقل عن خمسة عشر يومًا، بغير امرأة.

في خلال الأيام الخمسة عشر، قرأت أكثر مما أقرأ عادة في ستة أشهر كاملة وهذه هي أولى فوائد البعد عن المرأة!.

وكنت قد ملأت حقائبي بألوان كثيرة من الكتب، غير أني حينما لم أجد حولي امرأة، بدأت أنقب في حقائبي، وأتخير الكتب التي تدور حول المرأة، أو تفوح منها رائحة الجنس.

obeikandl.com

معركتى مع الأرواح

أنا لا أؤمن بحكاية الأرواح، وتحضير الأرواح، وتناسخ الأرواح ..

ومع هذا، فأنني لا أخفى أن أنيس منصور قد استطاع إغرائي بهذه الحكاية منذ سنتين تقريبًا، حين عاد من أندونسيا، ونشر أكثر من مقال في "أخبار اليوم" و"الجيل" عن تحضير الأرواح بوساطة السلة ..واستطاع أن ينشر هذه "التقليعة" في بيوت الناس الآمنين، الذين استغنوا عن الخروج والمسرح والسينما، وآثروا أن يقبعوا في بيوتهم يحضرون الأرواح على طريقة أنيس منصور.

وأنا أعيش في واحد من هذه البيوت الآمنة، وعلاقتي بزوجتي طيبة جدًا، وهي تثق في ثقة عمياء.

قالت لي ذات ليلة .. وكان عندنا ضيوف:- تعال نحضر الأرواح.

وجاءت بالسلة .. وبالقلم وبالورقة .. وبطفلتين من بنات الجيران في أول الصبا، وخفضت حدة النور، وأطلقت البخور، وقرأت الفاتحة واستحضرت روح أبيها .. رحمه الله

وبدأت السلة تهتز بين أيدي الصبيتين ... وراح القلم الذي في قاع السلة يعبث بالورقة التي تحته، إيذانا بحضور روح المرحوم الوالد.

وبدأت زوجتي تسأله أسئلة شخصية، عن نفسه، وعن مصيره، وعن إخوتها وأخواتها، وعن جميع المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات.

واعتبرت أنا هذه الأسئلة شخصية، لا شأن لي بها ولا بأجوبتها، ما دامت لا تمسنى شخصيًا.

- الهلال: نوفمبر ١٩٦٢.

ثم وصلت إلى السؤال الأخير قالت له:

- وما رأيك في صالح جودت؟

فقال ... رحمه الله:

- إنه لعوب ... ولكنه طيب القلب!

وقالت له بصوت متهدج تخنقه العبرات:-متشكرة يا بابا.

وانصرفت روح المرحوم، بعد أن تركت هذا الإسفين يعبث بالثقة الكبيرة التي أرسيت قواعدها في أعماق زوجتي أكثر من عشر سنوات.

وبعد هذا الحادث... أصبحت زوجتي لا تجد تفسيرًا لأي شيء يبدر مني أو يظهر حولي أو يقال عني ... إلا كلمة أبيها رحمه الله: "ما انت لعوب ..على رأي بابا!

فإذا دق التليفون في البيت، ورفعت هي السماعة، ولم يجب أحد، نظرت لي نظرة ذات معنى، وقالت: ما هو بابا قالها ...

وإذا خلوت بنفسي في غرفة مكتبي أقرأ أو أكتب.. أو سرحت قليلًا أفكر في قصيدة ... أو جلست إلى جانب الراديو أستمع إلى موسيقى شاعرية هادئة .. ابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت: "الله يرحمك يا بابا".

وإذا سهرت ليلة مع بعض الأصدقاء خارج البيت .. في ندوة ... أو في عزاء... أو في حفل بريء .. كان أول ما أسمعه منها عند عودتي إلى البيت: "والله لوما كنش بابا قال إنك طيب القلب .. ماكنت قعدت معاك ولا يوم ... يا لعوب".

أما أنا .. فقد كنت أكتفي في كل مرة بأن أقول: "منك لله ... يا أنيس منصور"

وأخيرًا ... طفح الكيل، فقلت لها :

- اسمعي ... هل تعتقدين أن أباك كان رجلًا طيبًا أم بطالًا؟

- فشر .. كان أبي سيد الرجال

قلت : حسنا .. وهل تتصورين أن سيد الرجال يرسل روحه إلى ابنته ليخرب بيتها؟

قالت مشدوهة :كيف؟

– يا سيدتي ... إن البيوت لا تستطيع أن تقوم إلا إذا قامت على أساس من الثقة فإذا ضاعت الثقة، أصبح البيت أوهى من بيت العنانى ... واندك على رءوس سكانه!

وارتسمت في ذهنها صورة بيت العنانى، عمارة الموت، التي انهارت على من فيها بأحد أحياء القاهرة منذ سنوات قريبة، فصرعتهم جميعا ... وارتجفت أوصالها أمام هذه الصورة.

واستطردت أقول لها : يجب أن تضعى كل ثقتك في واحد من اثنين: فإما أنا .. وإما روح المرحوم الوالد!

ووازنت المسكينة بين الاثنين موازنة مادية .. فرأت أنني أبقى، وأنفع ... فاختارت الأول .. ولم أعد أسمع منها كلمة: لعوب.

لم تكن هذه أول واقعة بيني وبين الأرواح.

أذكر أننى حينما كنت مراقبًا للبرامج الثقافية بالإذاعة، جاءني الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، رئيس جمعية الأرواح – رحمة الله عليه – ودعاني وبعض زملائي مع نفر من أهل الفن إلى جلسة لتحضير الأرواح في بيته، واعدا بأنه سيحضر روح المرحومة "ألمظ" .. المغنية المعروفة .. حبيبة عبده الحامولي.

وذهبنا .. وجلسنا في غرفة مظلمة .. وسمعنا أصواتا عجيبة تتكلم بالسفلى ... لغة الجن !

ثم بدأ الغناء...

وأرهفت سمعى إلى صوت المرأة التي تغني، فتبينت من أول مقطع، أدركت أنه ليس صوت ألمظ، بل إنه صوت مغنية شابة تغني في الإذاعة، اسمها مديحة عبد الحليم وملت على أذن زميلي محمد فتحي – كروان الإذاعة يومئذ .. كما كانت تسميه الصحف – وكان يجلس عن يميني، وسألته:

– أليس هذا صوت مديحة عبد الحليم ؟

قال : بالضبط

وكانت ليلى مراد تجلس عن يساري، مع زوجها السابق المرحوم أنور وجدي.

فسألتها نفس السؤال، فقالت:- هي ... والله العظيم !

وانتهى الغناء .. وعادت أصوات العفاريت ثم تضاءلت رويدًا رويداً حتى تلاشت وأضيئت الأنوار، وتلفت بعضنا إلى البعض وجاء الداعى يسألنا:

- ما رأيكم في صوت ألمظ ؟

فتحرجوا جميعًا ... إلا أنا

وبادرته قائلًا:- يا أستاذ .. نحن رجال إذاعة خبراء بالأصوات ... هذه ليست ألمظ

- إذن ... من تكون ؟

- مديحة عبد الحليم.

وأسقط في يد الرجل، وقال مرتبكًا :

- هذا صحيح .. "إنها مديحة .. ولكن روح ألمظ حلت فيها بإذن الله...

كانت هذه أول واقعة لي مع المرحوم أبي الخير.

أما الواقعة الثانية، معه أيضًا.... فكانت نسبب يتصل بشرف العلم.

ذلك أنني من هواة الإيجيبتولوجيا – علم الآثار المصرية – منذ زمن طويل، والفضل في هذا يرجع إلى صديقي الأثري المعروف الدكتور أحمد فخري، الذي حبب إلى هذه الهواية.

وحدث منذ أكثر من عشر سنوات، أن توصل الدكتور فخري – وكان يومئذ مديرًا لآثار الصحاري – إلى كشف أثري مهم بمنطقة دهشور.

وكان سبيله للوصول إلى هذا الكشف مجرد إيمانه بنظرية الفراعنة في بناء معبد جنائزي شرقي كل هرم يبنونه، وما دام هناك هرم في دهشور، فلا بد أن يكون في شرقه معبد مطمور تحت الرمال.

وبدأ عملية التنقيب في الجزء الشرقي من الهرم، فما لبث أن ظفر بالطريق الذي يؤدي إلى المعبد.

وتتبع الطريق حتى نهايته، فوصل إلى المعبد، ورفع عنه الرمال، فتكشف بجميع غرفاته!

واهتمت الدوائر العلمية بهذا النبأ، واحتفت به الصحف والإذاعات العالمية.

وفجأة طلعت "الأهرام" ذات صباح بمقال للأستاذ أحمد فهمي أبو الخير – غفر الله له – يقول فيه : إن الفضل في الكشف عن هذا المعبد لا يرجع إلى الدكتور فخري .. بل إلى الأرواح!

وأضاف إن وسيطًا روحيًا أجنبيًا – أظن أن اسمه رومانوف – زاره منذ شهور، وذهب به إلى منطقة دهشور، وعن طريق الأرواح، أشار إلى مكان هذا المعبد، قبل أن يكشف عنه الدكتور فخري بعدة شهور ولابد أن الدكتور فخري سمع بهذه الحكاية، وحفر، وادعى لنفسه شرف الكشف، منكرًا فضل الأرواح!

وثارت ثائرة الدكتور فخري .. وكان كل ما يملكه من متاع الدنيا ألف جنيه .. ثمن بضعة فدادين ورثها عن ذوية في الفيوم، فكتب للأهرام يقول إنه مستعد لأن يقدم كل ثروته – الجنيهات الألف – لأبي الخير، إذا أثبت أمام لجنة تختارها الجريدة أن الوسيط المذكور وقف في هذا المكان – مكان المعبد – أو أشار إليه.

ولم يتحرك أبو الخير طبعًا، ولم يقبل الرهان، ولم ينبس ببنت شفه ...

أما أنا، فقد تحركت ... وذهبت إلى دهشور .. وسألت كل من هناك عن حكاية الوسيط الروحي، فقالوا لي إنه جاء إلى دهشور حقًا ولكنه ذهب إلى مكان بعيد غربي الهرم لا شرقيه .. ولا غربيه بعدة كيلو مترات – وقال إن هناك كنزًا من الذهب!

وعدت ثائرًا لشرف العلم، ساخطًا على عبث الشعوذة.

وكتبت في مجلة "الإذاعة" – وكنت يومئذ رئيس تحرير لها – أتحدى أبا الخير أن ينطق.... فلم.... ينطق!

ومرة ثالثة خضت معركة مع الأرواح ..

كان ذلك منذ سنوات قريبة .. في ذكرى أمير الشعراء شوقي .. وقد أقام المجلس

الأعلى لرعاية الفنون والآداب حفلة الذكرى في القاعة الذهبية بقصر النيل.

وإذا بسيدة تتوجه إلينا برسالة من الأستاذ أبي الخير – رحمه الله – يقول فيها إن هذه السيدة – وهي زوجة طبيب – متصلة بالأرواح، وإن صلتها وثيقة بروح شوقي، الذي يمن عليها ببعض الشوقيات بين الحين والحين .. من الآخرة!

وقالت لنا السيدة: إن روح شوقي قد أملت عليها شوقية خاصة لهذا المهرجان!

"وقرأنا القصيدة – يوسف السباعي ورامي وأنا – فوجدنا بها سقطات لغوية لا يسقطها إلا طالب بالمدرسة الثانوية.. وسقطات عروضية لا يسقطها إلا "القرامزة" دعاة الشعر الجديد ....

وعرضنا هذا الهذر على كل شاعر وكل أديب في الحفلة، فأنكروا جميعًا أن يكون هذا "الشعر العفاريتي" لأمير الشعراء.

ولكن مجلة "الروح" التي كان يصدرها أبو الخير رحمه الله، نشرت القصيدة، ونسبتها إلى شوقي، على أنه أملاها من الآخرة!

وواصلت المجلة بعد ذلك نشر عشرات من مثيلات هذه " الشوقية العفاريتى" في أعدادها التالية ... وأكثرت منها إلى حد أنني أشفقت فيه من يوم نلقى فيه وجه الله، فيندس هذا الهذر على شعر أمير الشعراء، ولا يجد من يدفعه عنه.

وكتبت في "المصور" ....

كتبت أكثر من مقال أهاجم فيه صنيع أبو الخير .

إلا قليلا!

لي حكايات طويلة مع الأرواح .. حكايات قرأتها.. أو سمعتها أو عاشرتها.. أو عانيتها. أو جعلني القدر جزءًا منها على غير قصد. وكان بعض ذلك في مصر وبعضه الآخر في الخارج، ولو ضعف خيالي أمام هذه الحكايات لكان ممكنًا أن يستغرقني عالم الأرواح إلى حد الدروشة ولكنني كنت أفيق من كل حكاية على صوت الإيمان، وعلى ضوء الآية الكريمة التي تهتف في ضمائرنا دائمًا أن الروح من أمر الله، فهي لا تأتمر بأمر البشر.

جعلت عنوان هذا المقال " إلا قليلا " اقتبسته من الآية الكريمة التي تقول في مجال الروح "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

ولهذا أقول إنه لا يجوز لنا أن نخوض في حديث الروح إلا في حدود القليل الذي أذن الله سبحانه وتعالى لنا به.

على أن هذا القليل يختلف من إنسان إلى إنسان، فالعلم الذي يؤتيه الله للعالم، قليله أكثر من كل ما يعلم الجاهلون.

كما أن القليل من العلم الذي يؤتاه عالم الدين، يختلف في جوهره عن القليل من العلم الذي يؤتاه عالم الذرة، وهذا وذاك يختلفان عن القليل من العلم الذي يؤتاه عالم الزراعة، أو الكيمياء، أو الكهرباء، أو الطب، أو الجيولوجيا، أو الفلك .. وكل هذه علوم تمس دراسة الروح، ولكن الله أتى كل عالم من هؤلاء العلماء قليلًا من العلم عن الروح، وكل قليل عند الواحد منهم يختلف في جوهره عن القليل عند الآخر.

أقول هذا، لأنني – أنا وغيري – نقف في كثير من الأحيان حائرين أمام مشاهد وظواهر وخوارق من الجلاء البصري، يحار فيها الفكر البشري، وأذكر أننا في رواق الحكيم، الذي ينعقد في ردهة فندق سميراميس بالقاهرة كل يوم جمعة، وقوامه الأستاذ

توفيق الحكيم، والدكتور حسين فوزي، والدكتور مصطفى القللي، والأستاذ مصطفى مرعي المحامي، والأستاذ يوسف وهبي، وبعض أعلام الشعر والأدب والطب والفن ... أعني أننا زمرة لا يجوز أن تتهم بالسذاجة أو السطحية ... كثيرًا ما نتذاكر وقائع وقعت لنا أو لغيرنا، هي في الواقع أقرب إلى الخوارق الخارجة عن حدود الأمور الطبيعية.

سمعنا في الرواق لحكايات كثيرة عن أشخاص يمسون موضع الداء عند المريض فيشفى ... وعن أشخاص إذا طلب منهم أي شيء مادي بعيد عن متناول أيديهم، مدوا أيديهم في الهواء فأتوا به ... دون أن نجد لهذه الظواهر تعليلا!

ورويت لهم واقعة وقعت لي شخصيًا في أول يوم ذهبت فيه إلى أمريكا سنة ١٩٥٩ هي حكاية المستركول.

كنت قد ذهبت مع ثلاثين من كتاب العالم، للإعداد لدرجة علمية في دراسة منظمات الأمم المتحدة، بمقر الأمم المتحدة بنيويورك.

وفي اليوم الأول، ذهبت مع صديقي الكاتب السوداني محجوب صالح إلى بنك الأمم المتحدة، الذي يقع في قاعة فسيحة جدًا من نفس المبنى، لنصرف رواتبنا.

ووقفنا في الطابور أمام الشباك – وكان الطابور طويلًا ... وفجأة ... وقعت عيناي على مدير البنك، الذي يجلس وحده عند مكتب في ركن بعيد من القاعة ... فإذا عيناي تلتقيان بعينيه صدفة ... وإذا بالرجل يقف، ويحملق فيّ من بعيد ... ثم يقبل نحوي وئيد الخطا، جامد الوجه، كأنه يمشي وهو منوم مغناطيسيًا، إلى أن يدركني، فيصافحني ويشد على يدي بحرارة ويسحبني من الطابور، ويأخذني إلى مكتبه، ويقدم لي مقعدًا، ويسألني:

– ألا تعرفني؟

قلت :– من موقعك ... أتصور أنك مدير هذا البنك!

قال :– نعم ... أنا المستر "كول" ... أنا مدير هذا البنك ... وأنت صديقي ... صديقي الحميم ... إنني أعرفك منذ مئات السنين!

وبيني وبين نفسي، بدأت أشك في الرجل، وأعتقد أنه مجنون، وأعجب من أن تولى الأمم المتحدة أمور مصرفها رجلًا مجنونًا...

ولكنه عندما استطرد في الحديث، جعلني أشعر برهبة عجيبة ... قال :

- إنني أعرفك من مئات السنين ... ياما تلاقينا وتحادثنا وسهرنا ... ألست شاعرًا ؟

قلت : نعم..

قال : ألست مصريًا ... من القاهرة؟

قلت : نعم..

ومضى يذكر لي أشياء عجيبة عني وعن حياتي الخاصة، مع أنه لم يزر مصر في حياته، ومع أنني لم أكن قد زرت أمريكا في حياتي قبل هذا اليوم!

وطال حديثنا، ثم أخذ مني الشيك ليصرفه لي بنفسه ... فقلت له إن معي صديقًا سودانيًا، فذهب إليه، ودعاه إلى مكتبه، وصرف له الشيك هو الآخر، وودعنا وهو يرجوني أن أزوره دائمًا لنواصل سهراتنا وأحاديثنا القديمة عن الأدب والشعر والفن!

وأقول لك الحق أيها القارئ ... إنني خفت من هذه الظاهرة، وخرجت من بنك الأمم المتحدة أرتجف، ولم أعد إلى المستر "كول" أبدًا"، وجعلت أرسل شيكاتي بعد ذلك مع أي صديق بعد أن "أظهرها" ليصرفها لي!

كيف – مثلًا – أجد أو يجد غيري تعليلًا لمثل هذه الظاهرة، التي يروي علماء الأرواح نظائر كثيرة لها في المجامع والمجلات العلمية في الخارج؟

****

وأذكر أيضًا أنني كنت مفتونًا بصوت المغنية الباريسية المشهورة "أديث بياف" التي ماتت منذ سنوات قريبة، وقد أعلنت فرنسا الحداد مضاعفًا يوم وفاتها ... ذلك لأن صديقها الفيلسوف الكبير "جان كوكتو"، عضو الأكاديمي فرانسيز (والكاتب والشاعر والناقد والمؤلف السينمائي والمسرحي والممثل والمخرج) قد سقط عندما سمع بنبأ موتها ... ولحق بها في اليوم نفسه!

أقول ... كنت مفتونًا بصوتها إلى حد بعيد. وكنت كلما كتبت عنها سميتها "أم كلثوم باريس".

وذات يوم، حدث شيء هز باريس كلها ... ذلك أن صوت "أديث بياف" انحبس وهي على المسرح. وحار فيها الأطباء في فرنسا .. ثم في إنجلترا وألمانيا.

واستولى عليها اليأس، فنصحها صديقها "جان كوكتو" أن تلجأ إلى العلاج الروحي، عن طريق قوم يعرفون في باريس باسم "المعالجين" ... ومنهم النجار والحداد والبدال والقصاب – هذه حرفهم اليومية – ولكنهم يمارسون العلاج الروحي إلى جانب هذه الحرف، ويقال إنهم يستعينون ببعض الوسائل الروحية الصينية العريقة والمصرية القديمة في العلاج.

وذهبت "أديث بياف" إلى واحد منهم، وقضت في صومعته سبعة أيام، خرجت بعدها وقد استردت صوتها كاملًا، وعادت تجلجل على مسارح باريس، كما جلجلت حكايتها مع المعالجين بالأرواح على وجود الصحف الباريسية!

****

ومن هذا القبيل ما يرويه لنا الأستاذ يوسف وهبي من أنه حينما سقط من سلم بيته السقطة التي لا يزال يعاني آثارها منذ عدة سنوات قيل له إن في حي غمرة بالقاهرة شيخًا يعالج الناس بوساطة الأرواح.

ودفع حب الاستطلاع يوسف وهبي إلى استدعاء هذا الشيخ، الذي أظلم الغرفة ثم راح يخاطب الأرواح بالإنجليزية .. فيمتلئ جو الغرفة بأصوات غريبة.

إلى هنا يقول يوسف وهبي إنها عملية دجل ...

ولكن الشيء الذي أذهله، أن الشيخ سأله عن نوع الأدوية التي يتناولها لتهدئة الألم، فذكر له اسم الدواء، وأضاف أن الكمية التي كانت لديه من هذا الدواء قد نفدت وهو غير موجود في السوق، فضرب الشيخ على ذراع يوسف وهبي، وإذا بشيء يسقط من سقف الغرفة، وعندما أضيء النور، وجد يوسف وهبي على حجره علبة من هذا الدواء!

ويستطرد يوسف وهبي في حكايته، فيقول إنه لا يشك في أن هذا الشيخ كان دجالًا، وإن لم يستطع أن يجد تفسيرًا لحكاية علبة الدواء!

وسافر يوسف وهبي بعد ذلك إلى لندن للعلاج عند الدكتور "تانر" – المشهور في مصر – وطال العلاج عدة شهور، ازدادت فيها حالة يوسف وهبي سوءًا، حتى أشرف على الموت، وسمعهم في المستشفى يرددون أنه من الخير له أن ينتقل إلى القاهرة ليموت هناك.

وعندئذ استولى عليه شيء من اليأس من هذا العلاج. وكان قد سمع أن في لندن كثيرًا من المعالجين الذين يمارسون الوسائل الروحية في علاج الأمراض المستعصية، فلم يجد بدًا من الذهاب إلى أحدهم، كضرب من يأس الغريق إذا تعلق بعود من الحطب.

وذهب إلى أكبرهم، واسمه الدكتور "لانج".

ثم يروي يوسف وهبي حكاية هذا الدكتور، فيقول إن رجلًا ريفيًا إنجليزيًا دخل مدينة لندن ذات يوم، وسار في شوارعها يزعم أنه هو الدكتور "لانج"، الجراح الإنجليزي المشهور الذي مات منذ سنوات طويلة..

وتصور رجال الشرطة أن هذا الريفي ليس إلا مخبولًا. فأحالوه إلى الكشف الطبي، وجاء الأطباء للكشف عليه، فأصر الرجل على أنه هو نفسه الدكتور "لانج"، الجراح القديم الراحل، قد عاد إلى الحياة من جديد، وجعلوا يناقشونه في الطب وفي الجراحة بالذات، وفي بعض عملياته القديمة المشهورة في تاريخ الجراحة، وفي بعض العمليات الأخرى التي أجراها آخرون، والرجل يجيب في كل مرة إجابات علمية مذهلة.

وفي النهاية أقروا له بأن يمارس العلاج الروحي رسميًا، وبإذن من الدولة.

وذهب إليه يوسف وهبي، وهو في حالة إعياء، متكئًا على عصاه من ناحية، وعلى ذراع السيدة عزيزة عيد – ابنة الفنانة فاطمة رشدي والمرحوم عزيز عيد – من الناحية الأخرى.

واستقبله الدكتور "لانج"، وقال له :

– هل قالوا لك إنك ستموت غدًا، وذهل يوسف وهبي .. فابتسم الرجل، وقال له:

– لا تخف .. إنك ستشفى، وستعيش، ولكنك عولجت بطريقة خاطئة..

واستدعى الدكتور "لانج" الممرضة .. وطلب منها مصلًا روحيًا في إبرة روحية أيضًا – كلاهما غير مرئي – وحقن يوسف وهبي حقنًا روحيًا – أي في الهواء – ثم أجرى له جراحة روحية، أي إيمائية، من سبع غرز، بدون أية إبرة مرئية أو مشرط مرئي ... ثم قال له :

– والآن ... ألق بالعصا ... ولا تستند إلى ذراع السيدة التي معك .. وسر في الغرفة وحدك.

وسار يوسف وهبي، فإذا هو يسير صحيحًا معافى!

وعاد إلى مصر ... وعاش ... ووقف على المسرح!

ويؤكد يوسف وهبي أن آثار الغرز الروحية السبع – أي آثار الجراحة الروحية – لا تزال واضحة في جسمه حتى اليوم!

****

وحكاية أخيرة عن الأرواح ... نشرت مجلة "لوك" وهي من أعظم المجلات الأمريكية، منذ شهور قريبة، قصة فنانة في وسط العمر، في باريس، صحت من نومها ذات ليلة دون أن تشعر، ورسمت في الظلام صورة.

وعندما استيقظت في الصباح، واستغربت ما حدث في تلك الليلة، وتأملت الصورة. فزاد من دهشتها أن الأسلوب الفني لهذه الصورة التي رسمتها في الظلام من خطوط وألوان وأضواء وظلال، يخالف أسلوبها تمامًا ... بل هو أقرب إلى أسلوب الفنان الخالد "جويا".

وتكررت الحكاية أكثر من مرة .. أكثر من ليلة .. قامت غير واعية، ورسمت في الظلام صورة بعد صورة بعد صورة، كلها مخالفة لأسلوبها الفني، ومتابعة لأسلوب جويا..

وفي النهاية، ذهبت إلى طبيب نفساني يستعين بالتنويم المغناطيسي في علاجه لمرضاه، فنومها، واتصل بعقلها الباطن (اللاواعي) الذي اعترف بأن روح "جويا" تزور هذه السيدة أثناء نومها لتخدمها، ردًا لجميل قديم لأسرة هذه السيدة، أسدته إليه منذ مائتي سنة.

وعندما أفاقت السيدة، ذكر لها الطبيب هذه الحكاية، فذهبت السيدة إلى إحدى المكتبات، وراجعت سيرة حياة "جويا"، فعرفت أنه عندما هرب من إسبانيا خوفًا من القتل، لاذ بأسرة تعيش في جنوب فرنسا، هي أسرة "زايس" – جد زوج هذه السيدة!

****

أروى هذه الحكايات على ظاهرها. دون أن أتوغل في بواطنها، ولا أقول أكثر من أننا قد نقف حائرين أمام هذه الظواهر التي لا تفسير لها عندنا، لأننا لم نؤت من العلم إلا قليلا.

ولكن المتصوفة يقولون إننا كلما ازددنا زهدًا في الدنيا، وتقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، صعدنا درجة من الصفاء، حتى أوشكنا في صعودنا أن نقترب من القمة، تحت أقدام العرش، فهذه هي درجة الصفاء السابعة، التي لا ترقى إليها إلا أنقى الأرواح ... وعندئذ تملك هذه النفوس مقدرة الجلاء البصري، الذي تكشف به عن أشياء لا يراها أمثالنا من البشر .. ولا أقول أكثر من قولي : الله أعلم...

ماذا أكتب في ربيع الشيخوخة؟!

بعض الناس يفرق من ذكر الشيخوخة، ويتمنى ألا تكون ..

أما أنا، فإنني أعيش في انتظار ذلك اليوم .. الذي لا يزال بعيدًا.. الذي أتلقى فيه من دار الهلال رسالة تقول: "لقد اتضح لنا بمراجعة ملف خدمتك أنك بلغت سن الستين، ولهذا قررنا إحالتك إلى المعاش، فعليك أن تبقى في بيتك، وسنرسل لك معاشك في أول كل شهر".

وقد تنتهي الرسالة بكلمة تقليدية .. كلمة شكر على "الخدمات الطيبة" الذي أديتها للدار طوال هذه السنين بمنتهى الكفاءة والإخلاص.

ولست أدري كم سيكون معاشي، ولكني أتمنى أن يكون كريمًا، فإذا لم يكن كذلك، فسأطالب الدولة، بحق ما بذلت من جهد، أن تجعل لي معاشًا استثنائيًا يكفل لي أن أقضي بقية العمر هادئ النفس مطمئن القلب.

وأكبر الظن أن الدولة لن تبخل على بهذا الاستثناء، ولا سيما إذا علمت أن أجله لن يطول، فما هي إلا بضع سنوات حتى أذهب، ويرتد إلى خزانتها هذا المعاش برمته، إذ لا وريث لي يشارك الدولة في نصيب منه.

وإلى الذين يفرقون من ذكر الشيخوخة، أقول إنني لا أفرق منها لأكثر من سبب، لعل أولها أنني عاشرت قومًا يعيشون في ربيع الشيخوخة، وربيع الشيخوخة يكون بين السبعين والتسعين، فما رأيت أسعد منهم على وجه الأرض.

هؤلاء القوم يقولون عمن لا يزالون دون السبعين: إنهم لسه عيال..

وهم يرون أن الحياة تبدأ في السبعين ... وأن متع الشباب، من غزل ورقص وخمر، ليست وقفًا على الشباب، بل هي كذلك حق للإنسان إلى أرذل العمر!

رأيت هؤلاء القوم في لندن في ناد يقال نه "داربي أندجون"

.. أي الرجل والمرأة، أو آدم وحواء.

هذا النادي له نحو خمسمائة فرع في مختلف أحياء لندن، وله نحو خمسة آلاف فرع في أنحاء بريطانيا. وشرط العضوية فيه هو بلوغ السبعين.

ولقد أتيح لي أن أقضي أكثر من ليلة في أكثر من فرع من فروع هذا النادي، فأحسست أنهم يعيشون في "ربيع الشيخوخة" بالفعل.

إنهم يتناولون شاي الساعة الخامسة على نغمات الموسيقى، ثم يقضون بقية ليلتهم في طرب وغزل ومراح.

سمعت هناك في إحدى الليالي مغنية تردد أنشودة عن النيل.

وسألتها من أين جاءت بهذه الأغنية، فقالت لي – وكان ذلك سنة ١٩٥٥ – أنها كانت في أول شبابها تشتغل مغنية، وأنها كانت في مصر في أواخر عهد الخديو إسماعيل!

ورأيتهم يرقصون الرقصات الهادئة الحالمة .. التانجو والفالس ... ويستنكرون الرقصات الثائرة المجنونة الشائعة في هذه الأيام...

ورأيت في إحدى الليالي حفلة زفاف لعروسين، العروس في الخامسة والسبعين، والعريس في الثالثة والثمانين ..

وسألت العروس بعد انتهاء الحفلة: ماذا تصنعين لو خانك عريسك هذا في يوم من الأيام؟

فقالت ضاحكة: أخنقه .. وإذا لم أجد في نفسي القوة لخنقه. فإني أستأجر من يخنقه لحسابي!

******

ورأيت كثيرًا من الغراميات بين أبناء السبعين، والثمانين، والتسعين ...

ورأيت كذلك كثيرًا من "النفاثات في العقد" .. الذين يثيرون العقد القديمة الراسبة في نفوسهم منذ أيام الشباب، ولا ينسونها أبدًا.

فهذه ثلة من الرجال الذين خانتهم زوجاتهم أو حبيباتهم في عهد الشباب،

فأقسموا ألا يكلمون امرأة ما عاشوا، وقد انتحوا ركنا من النادي يسهرون فيه معا، ولا تقربهم امرأة!

وهذه ثلة من النساء تمثل العكس تمثل المنكوبات في غرامياتهن في عهد الشباب، وقد أقسمن ألا يكلمن رجلًا ما حيين، وانتحين من النادي ركنا لا يقربه رجل.

وتجلس مع هؤلاء، ومع أولئك وتسمع منهم ومنهن قصصًا تستحق أن تكتب، وأن تظهر على الشاشة.

****

لست لهذا وحده أتمنى الشيخوخة... ولكني أتمناها لعلي أستطيع في ظلها أن أحقق ما لم أستطع تحقيقه وأنا تحت شمس الشباب.

أريد – مثلا – أن أكتب سفرًا ضخمًا عن تاريخ الأزهر ... هذه الجامعة التي تعد أقدم جامعات العالم .. التي ولدت منذ أكثر من ألف سنة .. وخرجت كثيرًا من العبقريات والزعامات .. وأصابتها النكسة بعد النكسة، وأدركتها الطفرة بعد الطفرة، إلى أن تطورت في عهد الثورة تطورًا يضعها في مصاف أحدث الجامعات، دون أن يكلف أحد من المؤرخين نفسه مشقة كتابة هذا التاريخ الحافل.

وأريد أيضًا أن أنظم بعض المسرحيات الشعرية .. وصاحبي الشاعر الكبير عزيز أباظة، الذي حمل أمانة المسرحية الشعرية بعد شوقي، يقول لي، وللناس، وفي الإذاعة، وعلى وجوه الصحف، إنني أقدر المعاصرين على كتابة المسرحية الشعرية.

ولكن كيف أكتبها؟

أعني .. متى أكتبها وأنا مشغول بالرغيف اليومي؟

إن تأليف مسرحية شعرية واحدة، يتطلب سنة كاملة من التفرغ.. على الأقل.. وأنا عشت ما عشت، لم أنعم بإجازة كاملة أسبوعًا واحدًا في حياتي!

****

أحلام كثيرة تراود خيالي حينما أصل إلى بيع الشيخوخة.

ولكن العمل الذي أريد أن أبدأ به، هو أن أكتب عن الطفولة!

أريد في شيخوختي أن أكتب عن أعلام الأدب والفن عندنا في طفولتهم: وأن آخذ من هذه الطفولات الأضواء التي تنير طريق دراسة الأعمال الأدبية والفنية التي أنجزوها حينما شبوا عن الطوق.

وطفولات أعلام الأدب والفن - عندنا وعند غيرنا - هي أعجب الطفولات، وقد تتنوع ظروفها وتتعدد ألوانها، ولكنها تشترك جميعًا في عنصر الحرمان.

ولنأخذ بعض الأمثلة ...

طه حسين، يوفر علينا كثيرًا من العناء إذ يحدثنا عن طفولته بكثير جدًا من التفاصيل، ويصف لنا نشأته الشقية في الريف، وحرمانه من نعمة البصر، وما كان بينه وبين "عريف الكتاب" .. إلى آخر ما يصارحنا به في كتاب "الأيام".

وتوفيق الحكيم، يصف لنا طفولته وصفًا ممتعا في قصته الأولى "عودة الروح" وكيف عاش طفلًا بعيدًا عن أبيه وأمه، وسط أسرة صاخبة الجو، متلاطمة الشخصيات.

وحافظ إبراهيم، نشأ يتيمًا جائعًا، يعوله قريب له يضيق بلقمته، ويتبرم بطعامه وشرابه، حتى يجيء يوم يخرج فيه حافظ - وهو صبي صغير - من البيت، ويهيم على وجهه في الأرض، بعد أن يترك لقريبه هذا بيتين من الشعر يقول فيهما:

ثقلت عليك مئونتي ... إني أراها واهيه

فافرح، فإني ذاهب ... متوجه في داهيه

وعباس محمود العقاد، لا ينكر عليك إذا سألته عن طفولته، ما تخللها من يتم وفقر وحرمان تحت شمس أسوان المحرقة، وكيف كان كبير الأحلام، وكيف تثاءبت أحلامه على ملل دقات آلات التلغراف وهو يشتغل عامل تلغراف في صباه - وأحمد رامي، لو سألته عن طفولته، فكأنما نزحت من عينيه الدموع إنه يقول لك : لقد عشت طفولتي يتيمًا في حياة أبي،

وكان أبوه طبيبًا مغتربًا دائمًا، في ربوع جزيرة طاشيوز باليونان أو ربوع السودان ..

obeikandi.com

وكان رامي الصغير يحيا طفولة شقية محرومة في بيت لذويه يقوم بين أحضان القبور بصمتها وكآبتها.

وهو يحدثنا عن يتمه في حياة أبيه، وهو يرثي أباه فيقول:

يا أبي كم رمت بك البعيد من ... أجل بنيك الصغار قفرا فقفرا
وتغربت في البلاد تقاسي من ... ضروب الجواء قر حرا

وبيرم التونسي ... عبرت به طفولة من أشقى الطفولات، إذ مات أبوه وهو طفل، فتزوجت أمه نجارًا في حي الأنفوشي، ونشأ الطفل يتيمًا، واشتغل صبيًا لهذا النجار، ثم فتح دكانًا يبيع فيه الزيت والزيتون، ولم يلبث أن أفلس... ثم عبر به الصبا والشباب وهو بين سياط الإرهاب وأنياب التشرد والغربة والجوع والمسكنة.

وأم كلثوم ... هذه التي تقف بين أمجادنا في القمة ... إنها تحدثك .... تحدثك كيف كانت تقطع عشرات الأميال على قدميها الصغيرتين بين قرية وقرية ... وكيف قضت ليلة قاسية في "حاصل" يشاركها فيه جمل، فباتت مرتجفة الأوصال حتى الصباح، وكيف كان يفوتها قطار الليل فتبيت على رصيف المحطة حتى مطلع اليوم التالي!.

طفولات شقية كئيبة، هي التي تفتحت عن كل هذه العبقريات، حتى لقد أوشكت أن أقتنع بأن العبقرية لا تنبت إلا في أرض الطفولة المحرومة .. عندنا وعند غيرنا على السواء!..

****

بودي، في شيخوختي، أن أكتب عن طفولة أعلامنا ... وعن أعمال أعلامنا في ضوء طفولتهم.

فإذا سبقني إلى ذلك أحد، فلن أخاصمه، بل سأشد على يده، لأنه سبق إلى الفضل، وسد الفراغ، وحقق الأمنية.

اعترافات نصف قرن

ولدت في يوم عجيب... يوم ١٢ شهر ١٢ سنة ١٢... أعني ١٩١٢ أي أنني، بعد خمسة أشهر فقط، أكون قد قضيت على ظهر هذا الكوكب نصف قرن من الزمان، وهي مرحلة يجمل بالمرء عندها أن يقف قليلًا. أو طويلا، ليحاسب نفسه عما قدمت طوال هذه السنين من خير أو شر وأنا- مع أني محاسب متخرج في كلية التجارة- أكره الحساب كراهية شديدة ولكي أسهل على نفسي إجراء العملية الحسابية التي لابد منها، لأنها حسبة العمر عدت إلى أضابيري أقلبها وأول ما وجدت في أضابيري، شهادة الميلاد وشهادات الميلاد تكون عادة أهم وثيقة في حياة الإنسان، ولكن يبدو أن شهادة ميلادي اقترنت بمشكلة.. فعندما ولدت، كان أبي يعالج سكرات الموت بالمستشفي وأرادت أمي أن تسميني عبد الرحمن، تيمنا باسم أبيها، فكان لها ما أرادت وفي اليوم السابع من مولدي، صنع الأطباء معجزة أنقذت أبي من الموت، وخرج من المستشفي ليثير معركة كبيرة حول الطفل الصغير، الذي اسمه عبد الرحمن، والذي يجب أن يكون اسمه (صالح) تيمنا باسم شقيق لأبيه كان لامعًا في دولة الأدب والقانون يومئذ. كان عمري- يوم هذه الحكاية- سبعة أيام ولا أظن أنه كانت في أذنان تسمعان أو ذاكرة تعي تفاصيل الخناقة، ولا الألفاظ الجارحة التي تبودلت بين أبي وأمي يومئذ، وكل منهما متمسك بقراره، في اعتزازها هي بأبيها وهو بشقيق أبيه... ولكن الرجل انتصر في النهاية، بصدور إعلام شرعي بتغيير الاسم ومات عبد الرحمن وولد صالح جودت.

كان لنا بيت صغير في مصر الجديدة، تلفه حديقة لطيفة وفي طفولتي المبكرة كنت أسمع أبي وهو شاعر في الحديقة بالليل، وحوله نفر من أصحابه، يتلو عليهم كلاما منغما عرفت أن اسمه: شعر وكانت في البيت مكتبة ثرية، وكان أبي، كلما ضاق صدره، يمد يده

الهلال: أغسطس ١٩٦٢.

إلى كتاب منها بالذات، يطيل النظر فيه وعندما تعلمت فك الخط، مددت يدي إلى هذا الكتاب، فعرفت من عنوانه أن اسمه (مقامات الحريري) وفي السابعة أو الثامنة- وأنا بالمدرسة الابتدائية- بدأت أقرأ (مقامات الحريري)... وأظن أنني أنجزته في شهرين أو ثلاثة وبدأت أقلده.. بدأت أكتب مقامات لا أعي منها الآن شيئًا بكل أسف، ومصدر الأسف أن مقاماتي هذه لو بقيت حتي اليوم، لكانت خليفة بأن تضحك القراء. بهذه البداية، كتب على أن أتصل بصناعة القدم.

وذكريات المدرسة الابتدائية في مصر الجديدة كثيرة ومريرة ولا أحسب أن تلميذا في أية مدرسة من مدارس الوجود قد نال من الضرب ما نلته أنا من ناظر المدرسة التركي المرحوم با يزيد أفندي، سامحه الله كان جبارا وكان المنطق عنده في إصلاح الخطأ هو سن المسطرة في عز الشتاء، والخيزرانة، والفلقة.. وأحيانا الكرباج السوداني وكان لي زميل يشاركني هذه (المتعة) في كثير من الأحيان، هو فتحي طه، مدير الأرصاد الجوية الآن.. الذي يعلن لكم كل صباح أن الطقس شاعري لطيف، فلا تلبث العواصف والزوابع أن تهب لتصل بدرجة الحرارة إلى ٤٥ درجة.. اغفروا له.. فقد دفع ثمن أخطائه مقدما... دفعها لعصا با يزيد أفندي ولكن الشيء الذي أحب أن أعترف به بكل صراحة، أني أومن بالعصا، لقد كنت طفلًا شقيًا حقًا وأذكر- قبل أن ألتحق بهذه المدرسة- أنهم فصلوني من مدرسة الفرير، ومن مدرسة إنجليزية أخري، لأنني كسرت عدادات النور والمياه، وأشعلت مجموعة من الحرائق، وقبلت أكثر من تلميذة رغم أنفها، وارتكبت جريمة صغيرة انتهت بي إلى قسم البوليس حينما أر د أحد القساوسة أن يجبرني على أداء الصلاة في كنيسة المدرسة لقد استطاعت عصا با يزيد أفندي أن تهذبني وتجعل مني طفلا وديعا طول العمر وهذه همسة أهمس بها في أذن لأستاذ السيد يوسف، وزير التربية والتعليم، رغم أنف المادة ٨٨ التي تحظر على المعلمين ضرب التلاميذ. كان عمري عشر سنوات حينما ظفرت بالشهادة الابتدائية وهذا الرقم مألوف اليوم... ولكنه أيامنا كان شيئا آخر كان معنا تلاميذ في السنة الرابعة الابتدائية تصل أعمارهم إلى العشرين والخامسة والعشرين وعندما وقفت لأول مرة في طابور الصباح بالمدرسة الثانوية، نادي ناظر المدرسة اسمي، وقال: إن هذا التلميذ هو أصغر من نال الشهادة الابتدائية. في تاريخ

الشهادة الابتدائية وصفقت المدرسة... فهل تعلمون ماذا كانت نتيجة هذا التصفيق؟ ركبني الغرور، خيل لي أنني عبقري هذا الوجود.. وأن من حقي أن أكون فرعونا في المدرسة وفي البيت أيضا وكانت النتيجة أنني رسبت في السنة الأولي الثانوية ثلاث سنوات متصلة، كان ترتيبي فيها الأخير دائما... بعد أن كنت الأول دائما في المدرسة الابتدائية!

منذ يومئذ آمنت بشيء كبير.....

ليس يجني على المرء شيء أكثر من كثرة التصفيق له وتذكرت – وأنا أذكر هذه الحكاية كلمة قالها لي الأستاذ العقاد منذ أيام إن من أكثر من يصفق لهم الناس هم الجرسونات في المقاهي

نسيت أن أقول لكم فيم ضيعت تلك السنوات الثلاث... أيامها، كنت أعتقد أنني ضيعتها هباء أما الآن، فلا أظن أنها كانت كذلك لقد ضيعتها في مسارح روض الفرج- وكانت مثيرة- وفي مسارح عماد الدين.. وفي هذا الجو، شربت النظم وحفظت الأغنية، واستوعبت الفكرة القصصية، وقرأت المجلات الناقدة، وتعرفت على عشرات من النقاد والممثلين والمؤلفين والمطربين والمطربات والراقصات وسهرت.. فكنت لا أعود إلى البيت قبل الثانية من الصباح!

وكان هذا التيار الساحر قد جرفني فيمن جرف من مئات الأعواد الغضة التي انتهت إلى نهاية حزينة، هي التسكع على مقاهي الفن.

ولكن المعجزة حدثت حينما قرر أبي- وهو يعمل يومئذ مهندسا بالمنصورة - أن ينتزعني من جو القاهرة، ويلقي بي في مدرسة المنصورة الثانوية، لعلي أفلح وأفلحت المحاولة فعلا.. ومرة أخري... أصبحت أول فصلي كل سنة!

والعبرة التي أحب أن أخرج بها من هذا الاعتراف في هذه المرحلة، أنني استطعت أن أستغل الفشل، وأزرع أرضه حبات النجاح فالسنوات الثلاث التي ضيعتها في جو المسرح هي التي هيأت لي- بعد حقبة طويلة- أن أكتب الأغنية والقصة والمسرحية وأن أمارس صناعة النقد.

والمنصورة أرض طيبة، تنبت الحب والجمال، وتثير الشعر والخيال وعلي ضفاف المنصورة، تعرفت إلى زميلين لي في المدرسة، هما المرحوم محمد الهمشري ومختار الوكيل (مدير الإدارة الاقتصادية بجامعة الدول العربية الآن) كانا ينظمان شعرا جميلا، فشاركتهما فيما يصنعان وكنا نخرج من المدرسة لنلتقي بشاعرين يكبراننا سنا، هما الدكتور إبراهيم ناجي، والمهندس على محمود طه.. شاعر الجندول وتحولت الحياة كلها عندي إلى ملحمة شاعرية... فلم أعد أفكر في شيء إلا الشعر. حتي النثر. كنت أكرهه إلى أن قرأت يوما مقالا في مجلة أسبوعية معروفة، بإمضاء (أديب محايد) يتهجم فيه كاتبه على أم كلثوم وكنت أعشق أم كلثوم من بعيد وثرت من أجل أم كلثوم، وكتبت مقالا عنيفا أفند فيه مزاعم الأديب المحايد وبعثت به إلى المجلة، التي نشرته في مكان جلي، ويقلم الأديب الكبير الأستاذ صالح جودت!

كان عمر هذا الأديب الكبير يومئذ ١٤ سنة وعندئذ.. أدركت أن الشعر ليس كل شيء.. بل إن للنثر جماله، وأجل مافيه هو لقب (الأديب الكبير)!

وأخذت أراسل هذه المجلة، وأكتب فيها مقالا كل أسبوع، وأظفر بلقب (الأديب الكبير) كل أسبوع.. إلى أن نجحت في البكالوريا، وزحفت إلى القاهرة وذهبت لأقابل رئيس تحرير المجلة، الذي فغر فاه عندما علم أن الشخص الذي خلع عليه لقب الأديب الكبير، ليس إلا غلاما قادما من المدرسة الثانوية ليلتحق بالجامعة وخرجت من عنده مكسور الجناح.. ولكني رغم هذا واصلت الكتابة وبعثت إليه بمقال عن انطباعاتي في القاهرة فنشر سطورا منه، صدرها بقوله (جاءنا من الأديب صالح أفندي جودت مقال نكتفي منه بما يلي...)!

وكانت صدمة العمر.. لقد عشت أعواما- وأنا تلميذ بالمدرسة الثانوية- في ظل لقب (الأديب الكبير) وكنت- بعد أن نلت البكالوريا- أحلم بأنني سأكون أكبر وأكبر.. وها هي ذي الأحلام تنهار، ومقالي يقتضب، ولقبي يهبط إلى مجرد (أفندي) كسائر أفندية تلك الأيام.. أقول لكم الحق.. لقد استطعت- رغم شدة الصدمة- أن أفيق منها بسرعة، وأفكر في أمر خطير... أنني قادم من المنصورة لألتحق بكلية الآداب، حتي أثبت دعائم

لقب (الأديب الكبير) ولكن... ما دام لقب (الأديب الكبير) قد انهار في غمضة عين، فالأدب إذن صناعة غادرة وقررت ألا أكون أديبا.. قررت أن أكون تاجرا.. أو مصرفيا.. أو محاسبا.. أو اقتصاديا.. أو أي شيء في ميدان المال والأعمال أي شيء غير الأدب!

وهكذا أدرت ظهري لكلية الآداب، والتحقت بكلية التجارة!

والحكمة في هذه التجربة، هي نفس الحكمة الإنجليزية التي تقول (لا تضع كل ما تملك من البيض في سلة واحدة) أعني أنني قررت أن يكون الشعر والصحافة والأدب هواية، والتجارة والمحاسبة والاقتصاد مهنة، وأن أعالجهما معا على هذا الوضع، حتى إذا أخفقت في إحداهما، بقيت لي في الأخرى خيوط من الأمل في النجاح.

هل صدق حدسي؟

هل استطعت حقيقة أن أخلص لكلية التجارة، بعد أن أدرت ظهري لكلية الآداب؟

أبدا..

كان الصراع مريرا.. ويشاء الحظ- سوء الحظ أو حسن الحظ.. لست أدري- أن تقوم في تلك السنة بالذات، جماعة أدبية اسمها (جمعية أبوللو) للشعر.. برئاسة أمير الشعراء أحمد شوقي وينضم الركب القادم من المنصورة برمته إلى هذه الجمعية وفجأة.. أجد نفسي عضوا في مجلس إدارة جمعية أبوللو.. مع شوقي ومطران وأبي شادي وأضرابهم ويركبني الغرور- قاتله الله- مرة أخري.. وأتصور أنني صعدت إلى السماء.. بحيث لا أستطيع أن أكون تلميذا وأستاذا معا.. تلميذا في كلية التجارة، وأستاذا في مجلس إدارة جمعية أبوللو، صاحب كرسي إلى جانب كرسي أمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر القطرين خليل مطران.. ويتكرر نفس الشعور... هل صحيح أنني ضيعت هذه السنوات الثلاث هباء من العمر؟

أحاسب نفسي الآن، فأجد أنني كنت مخطئا حين اعتقدت أنها ذهبت هباء... أبدا.. لقد تعلمت خلال هذه السنوات الثلاث أشياء كثيرة وكبيرة: تعلمت كيف أقرأ.. وماذا يجب أن أقرأ في كل أدب عالمي وتعلمت أن بالقراءة أجمل متع الحياة وتعلمت أن الأديب الذي يكف عن القراءة يوما واحدا، يصاب فكره بشلل جزئي.. تماما كالشلل الجزئي

الذي يصيب ساقي لاعب كرة إذا كف عن التمرين اليومي، وكالشلل الجزئي الذي يصيب أنامل عازف القانون إذا كف عن العزف اليومي.

*****

أما كيف خرجت من محنة الرسوب المتوالي فقصته تحملني على الاعتراف بجميل رجل هو الآن في ذمة الله، هو المرحوم الدكتور زكي مبارك، حيث أصدر الدكتور زكي مبارك كتابًا قيما عنوانه (النثر الفني في القرن الرابع) وقررت جمعية "أبوللو" أن تقيم له هذه المناسبة حفلة تكريم بدار سينما كوزموس وكان ذلك قبل امتحاني بأسبوع واحد.. وتركت دروسي، وسهرت ليلتين أنظم القصيدة التي سأتلوها في حفلة التكريم وذهبت إلى الحفلة وعند الباب لقيت المحتفي به، الدكتور زكي مبارك، الذي ما كاد نظره يقع علي حتي صاح في وجهي بأعلي صوته أمام ملأ من الناس:

- انت جاي تعمل إيه هنا؟

-جاي أقول قصيدة

- إمش يا ولد ذاكر دروسك.. انت ناسي أن امتحانك الجمعة الجاية؟

ووجمت لحظات أمام هذه الوقاحة- أجل.. لقد سميتها يومئذ وقاحة- وغرقت في بحر من نظرات الناس الراثية حولي... وعدت إلى البيت وكلي حقد عليه، وعلي الشعر، وعلي الأدب وانكببت على كتب كلية التجارة، ولم أنم خمسة أيام ومر الامتحان.. ونجحت.. وأصررت على أن أترك الأدب إلى أن أنجز دراستي إلى نهايتها.. وهكذا تخرجت، وكنت الأول!

الدرس الذي استفدته من هذه التجربة، أن الطالب يباح له أن تكون له هواية ولكن لا يجوز له أن يدع هذه الهواية تشغله عن دراسته أبدا، إلى الحد الذي يهدد بالقضاء على مستقبله العلمي أو المهني.

بعد ذلك التاريخ بعشر سنوات: فكرت في أن أكون دكتورا في العلوم السياسية والتحقت بالدراسات العليا، وحصلت على الدبلومين بامتياز، وكنت أول دفعتي في الماجستير وأعددت رسالة الدكتوراه عن (الدولة المثالية في القرآن) وإذا بخطاب الجامعة

يقول لي إن الجامعة لا توافق على موضوع الرسالة وكان سنة ذلك ١٩٥٠ في عهد الملك فاروق، والسبب غير مذكور في خطاب الجامعة، ولكنه معروف أن الدولة المثالية في القرآن لابد أن تكون هدما للدولة التي يجلس على عرشها فاروق ومزقت الرسالة، وتنازلت عن الدكتوراه.

*****

إنني لا أروي قصة حياتي في هذا المقال فما هي بالشيء الذي يهم القارئ ولكني أنتزع من هذه القصة اعترافات لم أكتبها قبل اليوم، لأقدمها للشباب، لعلها تهديهم فيتجنبوا عثرات الطريق.. عثرات الطفولة.. عثرات الطيش.. عثرات الرسوب.. عثرات الهواية.. عثرات الأدب.. عثرات الفن!

تجربتي مع القلم

أضحك كثيرا حينما أذكر تجاربي مع الحياة.. أذكر أنني حاولت- في صباي- أن أكون بطلا رياضيا ومارست أكثر من لون من ألوان الرياضة،ككرة القدم والتنس، والتجديف، وكرة السلة.. و... و... و... ولكني لم أستطع أن أكون بطلا في شيء منها.. أبدا..

وحاولت أن أكون فارسا.. ومرة.. حمح بي الجواد.. وطار بي لمسافة طويلة بسرعة خيل السباق، وأنا ثابت فوق ظهره، وأصحابي يرمقونني في ذهول.. وفجأة وجدت نفسي أمام ترعة واسعة.. وأشفقت أن يستطرد الجواد في سيره فألقيت بنفسي من فوق ظهره، وسقطت سقطة فاجعة... وأذهلني بعد ذلك أن أري الجواد يتوقف على بعد خطوة مني أما أنا فقد كسرت ساقي، وبقيت في الجبس شهرا كاملا.

وحاولت أن أكون ممثلا.. وعرض على الممثل الكبير جورج أبيض، رحمه الله، أن أقوم معه ببعض مشاهد من الروائع التي اشتهر بها، مثل لويس الحادي عشر وأديب وعطيل، على أن تشترك معنا ابنته سعاد وكانت (البروفات) تبشر بالنجاح ولكني حينما وقفت على المسرح أول ليلة (أمام الجماهير) لم أذكر كلمة واحدة من الدور الذي سأمثله، وهو دور الأمير نيمور في مسرحية لويس الحادي عشر.. وأردت أن أستعين على فقدان ذاكرتي بسيجارة، وأخرجت من جيبي علبة سجاير (لاكي سترايك).. فصرخ جورج في وجهي، وكان من عادته إذا غضب أن يتحول إلى اللهجة اللبنانية: (شو عم بتسوي يا أزعر... أيام لويس ما كان فيه سجاير لاكي سترايك..)! وضحك الجمهور، ونزلت الستارة، وأسرعت إلى الهروب من الباب الخلفي للمسرح.. ولم أعد إليه أبدا.

وحاولت بعد تخرجي في كلية التجارة- أن أكون محاسبا.. وأنشأت مكتبا للمحاسبة ونجحت نجاحا لم أكن أحلم به.. ولكن بعد سنة واحدة.. تغلب حبي

الهلال : مارس ١٩٧٤.

للحروف على حبي للأرقام، وجاء اليوم الذي أصبحت أشعر فيه أن هناك ثعبانا يطل من كل رقم.. فاعتزلت عالم الحسابات، وتفرغت لعالم الكلمات.

*****

بدأت تجربتي مع القلم في موعد مبكر جدا من العمر.. كان جدي شاعرا، ينظم الشعر باللغتين الفرنسية والتركية.. وكان أبي هو الآخر شاعرا، ينظم بالعربية، وله قصائد كثيرة منشورة في صحف زمانه وهكذا نشأت والشعر في دمي وكنت في طفولتي أري أبي يجلس وحوله أصحابه كل ليلة في حديقة بيتنا بمصر الجديدة، ويقرأ عليهم من الشوقيات، إذ كان مفتونا بشوقي، وكان يعده سيد القدامي والمحدثين وفي هذه السن المبكرة، أعجبني جرس الشعر الذي أسمعه كل ليلة، فحاولت أن أقلده وأنا في السابعة، قبل أن أحسن القراءة والكتابة وكانت في البيت مكتبة كبيرة، بدأت أقلب فيها متفرجا، ثم متصفحا، ثم قارئا، حتي لقد قرأت (مقامات الحريري) وأنا في العاشرة وبهرتني براعة الصنعة التي في هذا الكتاب، وفتحت عيني على ما هو في جوهر اللغة العربية من جمال ثم بدأت أقرأ الشوقيات حتي حفظتها جميعا وأنا في الثانية عشرة وخلبتني موسيقاها حتي أصبحت- وما زلت حتي اليوم- أؤمن بأن الشعر هو أول ما يكون موسيقي... وأن على من ينظم الشعر وهو لا يحسن الموسيقي أن يهجر الشعر إلى النثر. وفي تلك السن، كنت تلميذا بمدرسة المنصورة الثانوية- إذ كان أبي يعمل مهندسا هناك- وحدث أن جاءت فرقة يوسف وهبي إلى المنصورة، واستضافته المدرسة هو وأعضاء فرقته، وقلت في تحية الفنان العظيم قصيدة مازلت أذكر منها هذين البيتين:

هذب نفوس شبيبة للخلق ... أحوج ما تكون
فالخلق إن بلغ الكمال ... بأمة، هدم السجون

ويبدو أن القصيدة أعجبت المحتفي به، فأخذها مني ونشرها في صحف القاهرة وفي العام نفسه، قرأت في مجلة (الصباح)... وكانت من أشهر المجلات الأدبية والفنية يومئذ، وكان من كتابها الدكتور زكي مبارك وصديقنا الدكتور سعيد عبده... أقول قرأت فيها مقالا يتهجم فيه كاتبه على أم كلثوم وقد نشأت على حب أم كلثوم كما نشأت على

حب شوقي، فأمسكت بالقلم، وكتبت مقالا طويلا محتدا أدافع فيه عن أم كلثوم، وبعثت به إلى المجلة التي نشرته (بقلم الأستاذ الكبير صالح جودت)... دون أن يدري صاحبها أن هذا (الأستاذ الكبير عمره اثنتا عشرة سنة).

ومنذ يومئذ لم أنقطع أسبوعا واحدًا عن مراسلة هذه المجلة، تارة شعرا وطورا نثرا، وينشر هذا وذاك جميعا باسم، الأستاذ الكبير.. حتي إذا حصلت على الثانوية العامة- وكنا نسميها البكالوريا- وتأهبت لدخول الجامعة، أحسست أن بي من الجسارة ما يكفل لي أن أذهب لمقابلة صاحب المجلة لأقدم له نفسي لأول مرة وذهبت، وسألني: أين والدك؟

قلت له: أتعرف والدي؟

قال: طبعا الأستاذ الكبير صالح جودت

قلت له: أنا صالح جودت... وتفرس في وجهي، فرأي أمامه صبيًا في السادسة عشرة، فاستصغر شأني، وأدرك، الخطأ الكبير، الذي وقع فيه خمس سنوات طوالا، وربت كتفي، ودفعني برفق إلى الباب وكانت عنده لي قصيدة.. وظهرت المجلة بعد ذلك، فإذا بها هذه العبارة في باب (رسائل القراء):

(جاءتنا من الأديب صالح أفندي جودت قصيدة نجتزئ منها هذه الأبيات).. وبعد ذلك.. ثلاثة أبيات أو أربعة من قصيدة طولها ثلاثون بيتا!

وهكذا هبطت من (الأستاذ الكبير) إلى (صالح أفندي) في غمضة عين... فأقسمت أن أهجر القلم، وكرهت الشعر والنثر، وقررت أن ألتحق بكلية التجارة، بعد أن كانت وجهتي كلية الآداب ولم تمض أسابيع، حتى تلقيت من صاحب المجلة نفسها، رحمه الله، مكالمة رقيقة يدعوني فيها إلى لقائه، فترددت قليلا، ثم ذهبت، فإذا هو يحسن استقبالي هذه المرة، ويقدم لي القهوة، ويسألني أن أواصل الكتابة كل أسبوع، بأجر لا بأس به.. ثمانية جنيهات في الشهر حيث كان الجنيه جنيها.. وكنت لا أزال طالبا يتناول مصروفه من أبيه... وهكذا وجدت الأجر مغريا، فقبلت على الفور ومنذ ذلك اليوم، أصبحت الهواية احترافا... ومنذ ذلك ليوم أيضا، لم أنقطع عن الكتابة في الصحف أسبوعا واحدا حتى اليوم.

في عهد المدرسة الثانوية بالمنصورة، كانت المنصورة خميلة شعرية جميلة يغني فيها الدكتور إبراهيم ناجي شاعر الأطلال، وعلي محمود طه شاعر الجندول، ومحمد عبد الغني حسن شاعر الأهرام، وم.ع. الهمشري شاعر الأعراف، ومختار الوكيل ومحمد رجب، وجميلة العلايلي وغيرهم من البلابل التي هجرت الشعر فيما بعد وكانت لنا جميعا ليال حلوة على شاطئ النيل بالمنصورة، ومن عجائب الاتفاق أننا- الهمشري وأنا- حينما نلنا البكالوريا وجئنا إلى القاهرة لنلتحق بالجامعة، نقل ناجي إليها أيضا، طبيبا بالسكك الحديدية، وعلي محمود طه كذلك، مهندسا بوزارة الأشغال... وكانا يكبراننا بعدة سنوات وفي هذه الفترة قامت جمعية (أبوللو) برئاسة أمير الشعراء أحمد شوقي، وأمانة الدكتور زكي أبو شادي وراح أبو شادي- رحمه الله- ينقب عن الشعراء الشبان، ويجمعهم حوله وهكذا التففنا حول رسالة (أبوللو) ووجدت نفسي وأنا دون العشرين، عضوا بمجلس إدارة الجمعية، ممثلا للشباب، أجلس إلى جانب أولئك الفحول من شعراء ذلك العهد ورواده الفكريين، وأكتب معهم في مجلة واحدة، بعد أن كنت لا أراهم إلا في الأحلام ثم نشبت المعركة بين مدرستي شوقي والعقاد، فاندفعت مدافعا عن شوقي، مهاجما خصومه بعنف وضراوة وكانت هذه أول معركة أدبية أخوضها في حياتي.. وإن كنت قد طرحت حماقة الشباب بعد ذلك بسنين طويلة، وعرفت قدر العقاد، واقتربت منه، وجلست معه طويلا في مجلس الفنون والآداب إذ كان مقررًا للجنة الشعر، وصفت نفسه لي كما صفت نفسي له، وإن كنت قد بقيت على الولاء لأمير الشعراء أحمد شوقي، كسيد للقدامي والمحدثين وكان العقاد- رحمه الله- لا يغضب من مجاهرتي له بذلك، بعد وفاة أمير الشعراء وفي (أبوللو) أصدرت أول ديوان لي باسم (ديوان صالح جودت) وأهديته إلى الصورة الحلوة التي كانت تستهويني دائما في صدر الشباب.. وحتي اليوم.. (إلي العيون الزرق والشعر الذهب).

وكان الديوان حافلا بما يحفل به شعر الشباب- ابن الحلقة الثانية- من شك في كل شيء، وتمرد على كل شيء، مما أوقفني أمام حملة ضارية من الشيوخ، ولا سيما شيوخ الأزهر لم أكن لأحتملها، وهجرت الشعر حينًا، ولكنه غلبني فعدت إليه بعد حين وعدت إليه هذه المرة، بعد أن ازدادت قراءاتي، وتعمق وجداني فيما أقرا ولا سيما في أدب

التصوف والمتصوفين، فعدت إلى الله، قوي الإيمان به، مفرطا في الحب لذاته لا ابتغاء لجنته أو خشية من ناره ومازال حبي لذاته- جل وعلا- يتصاعد يوما بعد يوم، حتي لأوشك الآن أن أكون من المتصوفين دون أن أهجر الدنيا أو أزهد في نعيمها؛ ذلك أني أعتقد أن الله لم يخلق نعيم الدنيا لكي يحرمنا منه أو يعذبنا بتركه، بل لنستمتع به في حدود من رضا الله وراحة الضمير وطاعة القانون وغمرتني موجة الإيمان إلى حد أنني بعد تخرجي في كلية التجارة، قسم العلوم السياسية، عكفت على إعداد رسالة الماجستير في موضوع (الدولة المثالية في الإسلام) ولم يتخل الله عني أبدا... مررت بعشرات من المحن، وصمدت لها جميعا مؤمنا بأن الله سينصرني في النهاية.

في بعض الآونة، وقعت الواقعة بيني وبين أحد الوزراء الغلاظ- وكان عسكريا- فأصدر قرارا عسكريا بإخراجي من وظيفتي- وكنت يومئذ مراقبا للإذاعة-.. وخرجت إلى الطريق مغضوبا على من الحاكمين، وليس في جيبي أكثر من بضعة قروش لا تقوم بأودي. وتصورت أن أحدا لن يجرؤ على استخدامي بعد هذه الغضبة العسكرية... ولكني كنت واسع الأمل في وجه الله.

ولم تمر أربع وعشرون ساعة، حتى وجدت أمامي ثلاثة عروض، لا عرضا واحدا، وكان أدناها إلى نفسي عرض من دار الهلال، أن أعمل بها مديرا لتحرير المصور، براتب يعادل ضعف راتبي بالإذاعة فقبلت على الفور. وبعد أيام من هذا الحادث، رأيت الوزير الغليظ يخرج من وظيفته ويعمل في إحدى الصحف، وبعد أيام أخري رأيته يخرج من وظيفته ويقبع في بيته.

وقلت: سبحان الله

أحسنت اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية منذ صباي، فتفتحت لي عوالم واسعة في دنيا القراءة وروضت نفسي على أن أقرأ كل شيء في كل فن.

وفي أول شبابي، أحببت فن الترجمة وترجمت عدة روايات، وربحت منها ما أعانني على أن أحيا حياة ترف، وأقتني سيارة، وأجالس من هم أكبر مني سنا وعلما، وأكثر مني مالا وجاها، وأحس أنني ند لهم ويحفزني علمهم إلى الاستزادة من العلم حتي لا أكون

دون إدراكهم إذا تكلموا، ودون مستواهم إذا ناقشوا أمرا من الأمور وتفتحت لي أبواب السفر، فطفت بكل أرض، حتى بلغت القطب شمالا واليابان شرقا، وأمريكا غربا، ومن ثم أقبلت على ممارسة أدب الأسفار، ومنه كتابي (قلم طائر) وأحببت العمل إلى حد أنني لم أظفر بإجازة منذ ربع قرن، ولعل سجلاتي في دار الهلال شاهدة على هذه الحقيقة.

نعم.. قد أسافر إلى مكان بعيد ولكني حينما أسافر، لا أترك القلم من يدي أبدا وهكذا بلغت كتبي زهاء ثلاثين، في الشعر والقصة القصيرة والرواية والسيرة والتصنيف والترجمة وأدب الرحلات بيد أن الشعر هو أكثر ما أعتز به وأيسر ما خلقت له. وأحسب أنني وصلت فيه إلى شيء، ولعل هذا الوهم تمثل لي كحقيقة بعد أن خضت كثيرا من المسابقات في شبابي، فكنت أظفر منها دائما بالجائزة الأولى وأدناها إلى ذاكرتي الآن، جائزة الأغنية الشعرية التي أقامتها الإذاعة في أول عهدها، ثم جائزة (مشروع القرش) ثم جائزة (أحسن قصيدة في السد العالي) ثم جائزة الدولة للشعر، التي كنت أول من نالها سنة ١٩٥٨. ذلك أنني أخلصت للشعر وأوضحت منهجي فيه، وعرفت المعاناة في سبيل إحسانه، ولم أحاول أن أنحرف إلى المذاهب السهلة منه كالشعر المنثور أو المرسل أو الحر لإيماني بأن الفن معاناة جمالية، وتجربة وجدانية، وبوتقة شديدة الدفء، تنصهر فيها عناصر اللغة والموسيقي والخيال.

وإذا كان لي أن أفضي إلى المقبلين على الشعر من الناشئة بشيء من حصيلة تجربتي مع الشعر، فإني أقول لهم:

* إن الثقافة العميقة والمنوعة، المستقاة من سائر الموارد القديمة والمعاصرة، هي أول عدة الشاعر الذي يريد أن يحتل مكانا في هذا العصر.

* وإن التمكن من اللغة بدراسة التراث والقواعد والأساليب، والهيام بقراءة المعاجم والموسوعات، جسر أساسي للشاعر الذي يرنو إلى التفوق والسموق.

* وإن الموسيقي هي أم الشعر، ومن ثم فأنني أحب للشعراء أن يدرسوا الموسيقي بمختلف ألوانها.

* وإن عصر الشاعر الصعلوك، الذي يتكسب بشعره، أو يجوع ويعري ويتشرد في

الطرقات، قد انتهي ولا مكان في عصرنا إلا للشاعر المثقف، الأنيق، المثمر، ولهذا ينبغي للشاعر أن تكون له مهنة يتكسب بها كالطب أو الهندسة أو المحاماة أو الصحافة أو التجارة أو غيرها، حتى يعصم شعره من شبهة التكسب ويجعل الشعر في أعماقه هواية لا احترافا طول حياته.

* وأن يبتعد عن السطحية ويحب المعاناة، ويلتزم بما ينبع من نفسه لا بما يمليه عليه مذهب أو نظام أو حكم أو كسب مادي.

* وأن يقرأ ويتعمق ليؤمن، فالشاعر الذي يحمل إيمانا أعمي، هو أعمي، والشاعر الذي لا يحاول أن يصل إلى الله، وينكر أعلي قيمة في الوجود تهون في وجدانه بعد ذلك جميع القيم التالية وهي الشرف والفضيلة والكرامة والكبرياء.

لا أحب الحب ولكن أحب الجمال

أريد أن أعترف اعترافا خطيرا... لقد فقدت قلبي، فأنا الآن أعيش بغير قلب! وأرجو من كل فتاة أو امرأة يضعها القدر في طريقي ألا تصدقني حينما أهمس لها: (إني أحبك)... فقد أصبحت لا أومن بالحب وكثيرا ما أخلو إلى صديقي أحمد رامي في الليل، على روف أحد فنادق القاهرة، نتحدث في الحب فيقول لي رامي: إن الحب هو السهد والحرمان والعذاب والدموع أما أنا.. فإني أنكر أن الحب كذلك... بل أنكر الحب أصلا... ومع هذا فإني أحب أن أسكن إلى المرأة كمخلوق جميل رقيق يؤنس الوحشة ويشيع البهجة والإيناس أما إذا تحول هذا المخلوق الجميل إلى سهد وحرمان وعذاب ودموع، فإني أكرهه.. أكرهه من الأعماق!

وآخر قصيدة قلتها لآخر امرأة عرفتها، كان عنوانها (كبرياء) قلت فيها:

أجـــل.. أنـــت فاتنـــة.. إنـــما
أري عـــزة الـــنفس لي أفتنـــا
وإن كـــان عنـــدك ســـحر الجـــمال
فـــسحر الرجولـــة عنـــدي أنـــا
وإن كثـــرت في هـــواك القلـــوب
فـــذلك مـــن بعـــض مـــا عنـــدنا
وأنـــت المنـــي... غـــير أني أمـــرؤ

الكواكب : ٩ سبتمبر ١٩٥٨.

يـــــذلل للكبريـــــاء المنـــــي

ويكـــره في الحـــب بـــذل الـــدموع

ويـــسط الخـــضوع وفـــرط الـــضني

إذا المـــرء هـــان عـــلى نفـــسه

لكـــان عـــلى غـــيره أهونـــا

وأنا أعترف، بكل شجاعة، أن كل من يقرأ مثل هذا الشعر، ومثل هذا الإنكار للحب، إذا كان الحب معناه السهد والحرمان والعذاب والدموع، سيقول لي من فوره: (أنت تعاني عقدة نفسية)!

وهذا صحيح لقد فقدت قلبي، الذي خرج من صدري، وحلت محله عقدة نفسية صنعتها ثلاث نساء : الأولى عرفتها إذ نحن طفلان... هي في الخامسة، وأنا في العاشرة وكبرنا، وكبر الحب حتى بلغ مبلغ الشباب .. كانت جميلة سمراء، وكانت شواطئ المنصورة مسرح حبنا الكبير، ومن حبها أحببت الجمال الأسمر، ووضعته فوق كل ألوان الجمال وحينما ودعت هذه الشواطئ، وقفت أناجيها:

آه مـــا بي، وهـــل تـــدرين مـــا بي

يـــوم ودعتـــك ودعـــت شـــبابي

أيـــن أحلامـــي عـــلى تلـــك الـــروابي

ذابـــت الأحـــلام في قلبـــي المـــذاب

***

ســـمرة النيـــل عـــلى خديـــه تجـــري

هـــو إلهـــامي وأحلامـــي وشـــعري

ونعيمـــي بـــين عينيـــه وســـكري

كـــان عنـــد الليلـــة الظلـــماء بـــدري

ولـــــه نجـــــواي في دنيـــــا اغـــــترابي
يـــــا تـــــري يـــــذكرني بعـــــد الغيـــــاب؟

وبقي لهذه الطفلة في خيالي تمثال جميل... تمثال رائع.. كنت أسميه (مثالية الحب) والتقينا بعد ذلك في القاهرة، واستأنفنا قصة حبنا القديم، في أفلاطونية لم يعرف مثلها أفلاطون نفسه وحينما همت بأن تقدم أجمل ما عندها لرجل... قدمته لرجل غيري!

وانهار التمثال ومعه سحر الجمال الأسمر في عيني، ومات في قلبي وكان هذا هو الحجر الأول في بناء عقدتي النفسية ضد الحب وجاءت الثانية... وكانت في هذه المرة شقراء... خضراء العينين، ذهبية الشعر وبهرتني... وبدأت ثانية المآسي في حياتي واستمعت إليها طويلا، وكانت همساتها أعذب من الشعر وألذ من الموسيقي وكانت أفكارنا تلتقي دائما عند نهاية واحدة وانتهى حديثنا إلى الزواج

ورحنا نتصور كل شيء... نتصور عشنا على طريق الهرم... وما فيه من أثاث... وما يزينه من ورود... وما ينتظرنا من بنين وبنات وفجأة... تلقيت بطاقة دعوة إلى حفلة زفافها... إلى شيخ يكبرها بثلاثين عامًا على الأقل.

وأذهلتني قسوة المفاجأة.. ولكني عرفت بعد ذلك أن هذا الشيخ قد حبب لها الطموح لقد كان وزيرًا في ذلك العهد.. منذ أكثر من عشر سنوات.

وقد أعجبتها الفكرة، أن تصبح زوجة وزير ويقف على بابها الحراس ذوو الأزرار المذهبة وأن تدعي إلى مآدب القصر الملكي!

وذهبت مع الريح... تاركة في أعماقي حجرًا ثانيًا في بناء عقدتي النفسية!

ثم جاءت الثالثة...

وأقول مخلصًا إنني لم أتعمد أن أحب الأولى لأنها كانت سمراء، ولم أتعمد أن أحب الثانية لأنها كانت شقراء ولكن هكذا شاء القدر .. وكذلك شاء القدر أن تكون الثالثة من لون جديد .. كانت بين بين، معسولة العينين، كستنائية الشعر.

وكانت أذكى امرأة في الوجود ...

كانت مثقفة .. تقرأ ليل نهار ... وتعشق الشعر والأدب والموسيقى ...

ولكن أجمل ما فيها أنها كانت قوية الإلهام ... كل كلمة أو نظرة أو همسة أو خطرة منها كانت عندي ملحمة كاملة!

ووقفت عندها أحس أنني أسترد كل ما فقدت من عاطفتي وإنسانيتي في الحبين السابقين .. وذات ليلة، انسربت إلى مكان على شاطئ النيل لأخلو إلى نفسي .. لأنظم فيها أجمل أنشودة في حياتي وجعلت أتخيلها ... فإذا بها أمامي وجهًا لوجه ... ولكن في ذراع رجل آخر ... بعد حب دام خمس سنوات!

هكذا انهارت التماثيل الثلاثة، التي كانت بالصدفة – تمثل كل لون من ألوان الحب، وكل لون من ألوان الجمال.

وبعد ... أفلست معذورًا حينما أقول : إنني فقدت قلبي وأصبحت أطوي صدري على هرم مدرج من العقد النفسية؟

أجل ... إنني لم أعد أحب الحب، ولكنني ما زلت أحب الجمال.

من أرشيف الذكريات
صورة.. ورسالتان

تعودت في الأسبوع الأخير من كل عام- أعني في مثل هذا الأسبوع- أن أراجع حساباتي.. وهي ليست حسابات رقمية، بل روحية.. فيها بدل الدفاتر والفواتير صور وخطابات.. فإذا انتهت من هذه المراجعة، مزقت من هذه الصور والخطابات ما يستحق التمزيق، وحفظت منها ما يستحق الحفظ في مكتبي.. وفي مكان خفي منه. رسالة عمرها تسعة أعوام وأنا أقرؤها مرة في نهاية كل عام، فأجد فيها لذة صوفية متجددة، نابعة من أعماق شاعر كبير، لا يتكلم- حتى في حياته اليومية- إلا شعرا.. إنه الشاعر الذي ملأ الدنيا حبا وشبابا وغناء.. أحمد رامي وعندي عشرات من رسائل رامي، في مختلف المناسبات وأحيانا بلا مناسبات ولكن هذه الرسالة بالذات أثيرة عندي، لأنها في يقيني أبلغ ما كتب رامي من النثر يضاف إلى هذا أن رامي، الذي لا يعيش إلا للحب والشعر، يقف- إذ هو يكتب هذه الرسالة- عند بيت الله الحرام، فيقول لأول مرة في حياته: (قاتل الله هذه الشاعرية.. لأنها ترمي بنا أحيانا إلى أحضان الملذات..) إنني لا أريد أن أشوه جمال هذه الرسالة بابتسارها، ولا أضن بها على القراء ولا على التاريخ تقول الرسالة، وتاريخها ١٩٥٦/٥/٢٦: (أخي صالح: لم أكتب إليك منذ أن وطئت قدماي هذه الأرض المباركة.. ولكني كنت أذكرك لنفسي دائما، وأعيد ذكرك على رفقائي في كل مناسبة، وكنت أترك عيني تهيم فيما أري من جمال في الطبيعة، وجلال في الآثار، وأنا أراك إلى جانبي تشاركني متعة العين والروح (ولا أخالك إلا ذاكري في غيبتي، أنا الذي أردت أن أمتع عيني برؤيتك قبل أن أغادر الأرض التي ضمتني وإياك في أسعد الليالي أنا هنا روح ولا جسد .. عاطفة ولا فكر... خيال ولا حقيقة.. أهيم في جو من الروحانية وأسبح في بحر من الوجدان، وأنطلق في دنيا الأحلام .. لحنا يذوب على صدر الماء، وأريجا على جناح الهواء

الكواكب : ديسمبر ١٩٥٨.

(وقفت عند قبر محمد عليه السلام وبكيت.. وطفت حول الكعبة وسعيت.. وكنت في كل ذلك أضع أمامي صورة ذلك القطب الذي امتلأت من القراءة عنه، وعشت معه في مغانمه ومآسيه، وعرفت كيف انتشرت دعوته الصادقة بجناحين من الإيمان واليقين، ثم كانت بعد ذلك نبراسا للناس من كل دين ثم جلست أمام الكعبة بعد أن طفت بها سبعا، فإذا بي أصلي في وجوه لناس، وأري المصلين حولي من يمين وشمال، وأجد أن القصد إذا توحد، طاب الوصول إليه من كل صوب، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره (ورأيت الوفود من كل صقع ولون، بين وافد من سهول الصين وجبال الهند ومراعي باكستان ومناهل الفرات، ورأيت في كل السحن تعبيرا واحدا وإيمانا واحدا بالواحد القهار، مخرج الليل من النهار، هذه المواقف الروحية زادتني إيمانا على إيماني، وكشفت من نفسي عن زوايا غطي عليها عنكبوت الحياة وتراب الجسد وأنت تعرف أننا، نحن الشعراء، مؤمنون في قرارة أنفسنا، وإلا ما آمنا بما نقول بعد إحساس صادق وإيمان عميق ولكنها الشاعرية- قاتلها الله- ترمي بنا أحيانا بين أحضان الملذات نهما في ترشف الحسن وانتشاق الجمال.. ثم إذا نحن، في حومة هذه الحياة الصاخبة، ترجع نفوسنا الهائمة إلى وكرها الأمين عند رؤية نجم يلمع، وريح تسري، وشفق يذوب في ساعة الغروب. وعندها تقف لذات هذا العالم وراء لذة التطلع إلى آية من آيات الله تنسخ كل جمال، وتقضي على كل خيال .. هذه الكلمات أكتبها إليك ضحي اليوم، وأنا وحدي أطل على سماء صافية وأجلس في مسري نسيم كأنفاس الأحباب، فيه هواء وفيه نار .. وأنا الآن لأبعث إليك على جناح هذا النسيم الدافئ قبلة لا أدري إن كانت تستطيع الوصول إليك عبر هذه الصحراء المترامية، وعبر ذلك البحر الفوار.. ثم عبر ذلك عبر مروج مصر وأنهارها الضاحكة في وجه الربيع الراحل إلى حين.

*****

وهذه رسالة أخري، باقية في مكتبي منذ عشر سنوات، فتاريخها: أول يونيه سنة ١٩٥٣ ولهذه الرسالة قصة.. والقصة تبدأ قبل تاريخ الرسالة بعدة سنوات... كنا يومئذ.. محمد فتحي وعلي خليل وعبد الحميد يونس ومحمد محمود شعبان وحافظ عبد الوهاب

والمرحوم عبد الوهاب يوسف.. نعمل بالإذاعة.. في أول الشباب وكانت كلمة (روسيا) محظورة في الميكرفون، مهما كانت المناسبة.. بأمر القصر! وحدث أن دعت الإذاعة العالم الرحالة والقصصي والموسيقي والأديب والفنان، الدكتور حسين فوزي، ليلقي سلسلة من الأحاديث عن الموسيقي وكان لابد – ما دام يتحدث عن الموسيقي – أن يجيء ذكر روسيا، والموسيقي الروسية وهنا ثارت المشكلة.. المشكلة التي ستفهمونها من بين سطور هذه الرسالة وكانت النتيجة أن وقعت القطيعة بين الدكتور حسين فوزي والإذاعة.. أو بينه وبين مسئول في الإذاعة بالذات ومرت السنوات وهذه القطيعة قائمة، إلى أن قامت الثورة في يوليو سنة ١٩٥٢.. وعندئذ لم يتردد الدكتور حسين فوزي في معانقة الميكروفون، ليقول كلمة طيبة في تحية الثورة.

إسكندريـــة يا عروس الماء
وخميلة الحكماء والشعراء

كان ذلك خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر طوبة، التي نسميها نحن المصريين (برد العجوزة) ركبت الطائرة من شاطئ باكستان، قالت المضيفة الرشيقة بصوتها الهامس الدافئ: بعد خمس دقائق، نهبط في مطار كراتشي... ودرجة الحرارة بها خمس وأربعون.. في الظل!

وعشت شهرا أتجول في مدائن باكستان، وأتقلب في حرها، وأنا في ثياب الشتاء الغليظة رغم أنفي، لأن ما في جيبي لا يسمح بشراء ثياب صيفية.. وهناك عرفت أن أهل باكستان لا يعرفون الفصول الأربعة.. فليس عندهم غير موسمين: الجفاف (وهو هذا الذي عانيته هناك).. وموسم الأمطار ومن يومها، تعلمت أن أدرس جو كل بلد على الورق، قبل أن أسافر لأعيش فيه على الطبيعة .

عشت الشتاء في عز الصيف

كان ذلك عندما ركبت الطائرة من طوكيو إلى كوبنهاجن عن طريق القطب الشمالي ذاهبين إلى آلاسكا، على قيد خطوات من القطب الشمالي، لنقضي ليلة هناك في بلدة "الانكوردج"

أتعرفون كم كانت درجة الحرارة هناك في شهر يوليو؟

خمس عشرة .. تحت الصفر!

مجلة المصور : ١١ يوليو ١٩٦٩.

صيف الإسكندرية

شهدت الصيف في جميع بلاد الله ولكني لم أشهد صيفًا في الوجود أجمل من صيف الإسكندرية .. وزمان .. وأنا حدث .. كنت أحب من الإسكندرية الصيف والبحر والرمل .. كما يحبها سائر الناس وفي أول الشباب، شدتني إلى الإسكندرية صورة .. صورة لا أنساها .. ولا أزال أحتفظ بنسخة منها في غرفة نومي .. هي اللوحة الخالدة التي رسمها محمود سعيد لبنات بحري. هذه الصورة، علمتني أن الإسكندرية ليست مجرد صيف وبحر ورمل وشدتني إلى الداخل، لأعرف أن الإسكندرية مدينة حب وجمال، وعلم وفن، ونكهة وتاريخ ودخلت أعماق الإسكندرية ... ومشيت في الحارات المعطرة التي تمشي فيها بنات بحري .. وعشت في جوار المتصوف القباري وسيدي أبي العباس المرسي.. وولي الله أبي الدرداء .. الذي تسميه العامة " أبو الدردار".

وذهبت إلى متاحف الإسكندرية ودخلت مكتبة الإسكندرية، فعرفت قصة حكمائها وعلمائها وأدبائها الأقدمين، من عهد اليونان إلى العصر الإسلامي .. ثم عاشرت أدباءها وشعراءها المعاصرين فوجدت عندهم لونًا من الفكر له سماته التي تختلف عن سمات الفكر القاهري .. كانت الإسكندرية حاضرة مصر قبل الفتح الإسلامي.. ومالت شمسها ..فذهب عنها الملك ولكنها ظلت تلد النابهين في كل علم وفن، وتنفح بهم الوادي بين جيل وجيل، من أمثال بيرم التونسي وسيد درويش وقد اشتهرت الإسكندرية بحكمائها منذ أقدم العهود، وقد ذكر حنين بن إسحق أن الإسكندرانيين هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم ومجالس الدرس في الطب والحكمة، وكان منهم (ايرن) صاحب كتاب (حل شكوك كتاب إقليدس) وكتاب (الحيل الروحانية) وكان منهم (أفنون الإسكندري).. وكان إماما في علوم الرياضة والفلك و(فالبس المصري) وكان عالما بالرياضة والنجوم والمواليد، ومن أشهر مؤلفاته (كتاب السلطان) و(كتاب الأمطار)

ومن أشهر علماء الإسكندرية، يحيي النحوي، العالم الفليسوف، وقصته أنه كان ملاحا، يملك سفينة يعبر فيها بالناس وكان يحب العلم كثيرا، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الإسكندرية، يتحاورون فيما قرأوا ودرسوا، استمع إليهم وقد هشت نفسه لما يقولون، فلما قوي رأيه في طلب العلم، فكر في نفسه، وقال: (لقد بلغت نيفا وأربعين سنة، وما ارتضت بشيء، ولا عرفت غير صناعة الملاحة، فكيف أستطيع أن أتعرض لشيء من العلوم) وفيما هو يفكر، إذ رأي نملة قد حملت نواة ثمرة، وهي دائبة تصعد بها، فوقعت منها، فعادت فأخذتها: ولم تزل تجاهد مرارا حتي بلغت غرضها فقال: (إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة، فأحري بي أن أبلغ غرضي بالمجاهدة وخرج لتوه، فباع سفينته، ولزم دار العلم، وبدأ بتعلم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه الأمور، ونسب إليها واشتهر بها وسموه يحيي النحوي، ووضع كتبا كثيرة في كل ذلك وذكر عبد الله بن جبرائيل بن عبيد الله ابن نجنيشوع الطبيب، أن اسم يحيي (تامسطبوس).. وكان مسيحيا، وقد استطاع بعلمه أن يصل إلى منصب أسقف في كنيسة الإسكندرية، على مذهب اليعقوبيين ولكنه رجع عن عقيدة التثليث، واستحال عنده أن يجعل الواحدة ثلاثة، والثلاثة واحدا ولما تحقق الأساقفة من رجوعه عن هذه العقيدة، عز عليهم، فاستعطفوه وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع، فأسقطوه عن المنزلة التي هو فيها.

وعاش يحيي النحوي إلى أن دخل عمرو بن العاص الإسكندرية فاتحا منتصرا ودخل يحيي على عمرو، فلما عرف هذا موضعه من العلم، وما جري له مع الأساقفة، أكرمه، ورأي له موضعا، وسمع كلامه فأعجبه وفتن به، وشاهد من حججه المنطقية، وسمع من ألفاظه الفلسفية ما لم تكن للعرب به معرفة، ولازمه حتي لا يكاد يفارقه ثم قال له يحيي يوما: (إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية – أي خزاناتها – وختمت على كل الأصناف الموجودة بها- أي وضعتها تحت الحراسة – فأما مالك فيه انتفاع، فلا أعارضك فيه، وأما مالا نفع لكم به، فنحن أولي به، فأمر بالإفراج عنه .. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة في الخزائن الملوكية، وقد أوقعت الحوطة – أي الحراسة- عليها ونحن محتاجون إليها فقال: ومن جمع هذه الكتب، وما قصتها؟ قال

يحيي: إن بطليموس فيلادلفوس، لما ملك جمع إليه العلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها، فأفرد لها خزائن: فجمعت، وولي أمرها رجلا يعرف بزميرة، وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها وشرائها بأي ثمن. فاجتمع من ذلك أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا ولما علم الملك باجتماعها، وتحقق عددها، قال لزميرة: أتري بقي في الأرض من كتب العلوم ما ليس عندنا؟ فقال له زميرة: قد بقي في الدنيا شيء كثير، في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل، وعند الروم فعجب الملك: وقال له: دم على التحصيل فلم يزل زميرة على ذلك حتي مات الملك وهكذا اجتمعت للإسكندرية في ذلك العهد أعظم مكتبة في التاريخ.

شعراء الإسكندرية

وجاء الفتح.. وبدأت الإسكندرية تنفح الوادي بشعراء وأدباء ومفكرين، لغتهم العربية، وإن ميزهم على شعراء الفسطاط، أن تكوينهم الفكري كان مزاجا من الثقافات اليونانية والرومانية والقبطية والمغربية والأندلسية والعربية ومن هؤلاء الشعراء، أبو بكر العبيدي، وسليمان بن فياض، ومحمد بن أبي الحسن الذي قال في وصف منارة الإسكندرية:

لله در منـــار الإســـكندرية .. كـــم
يـــسمو إليـــه عـــلى بعـــد مـــن الحـــدق
مـــن شـــامخ الأنـــف في عرنينـــة شـــمم
كأنـــه باحـــث في دارة الأفـــق
يكـــسر المـــوج منـــه جـــانبي رجـــل
مـــشمر الـــذيل لا يخـــشي مـــن الغـــرق
للمنـــشآت الجـــواري عنـــد رؤيتـــه
كموقـــع الـــنجم مـــن أجفـــان ذي أرق

ومنهم الشاعرة تقية الصورية التي وصفت بعض رياض الإسكندرية بقولها:

والـــروض مبتـــسم بنـــور أقاحـــه
لمـــا بكـــي فرحـــا عليـــه غمامهـــا
والنـــرجس الغـــض الـــذي أحداقـــه
ترنـــو لـــتفهم مـــا يقـــول خزامهـــا
والـــورد يحكـــي وجنـــة محمـــرة
انحـــل مـــن فـــرط الحيـــاء لثامهـــا

ومنهم الشاعر أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز السكندري ومن بدائعه في الغزل هذه الأبيات:

يـا سـحر الطـرف لـيلي مـا لـه سـحر
وقـد أضر بجفنـي بعـدك السـهر
ولـست أدري وقـد صـورت شخـصك في
قلبـي المـشوق، أشـمس أنـت أم قمـر
مـا صـور الله هـذا الحـسن في بـشر
وكـان يمكـن ألا تعبـد الـصور
أمـوت وجـدا ومـالي منـك مرحمـة
وكـم حـذرت ولم ينفعنـي الحـذر
أسـتغفر الله، لا والله مـا خلقـت
عينـاك إلا لكـي يفنـي بهـا البـشر

أما المعاصرون، فمن أشهر من تفتحت شاعريته منهم على ضفاف الإسكندرية، الشاعر الكبير عبد الرحمن شكري، صاحب العقاد والمازني، وصاحب الفضل في توجيههما إلى قراءة بدائع الأدب الغربي ومنهم خليل مطران:الذي هاجر من لبنان شابا حديث العهد بالشعر، وسكن الإسكندرية، واشتغل فيها بالصحافة، بجريدة (الأهرام).. وكانت يومئذ تصدر هناك ومن أجمل شعره في الإسكندرية، قصيدة (المكس) ومنها:

شـاك إلى البحـر اضـطراب خـواطري
فيجيبنـي برياحـه الهوجـاء
ثـاو عـلى صـخر أصـم، وليـت لي
قلبـا كهـذي الـصخرة الـصماء
يتابهـا مـوج كمـوج مكـارهي
ويفتهـا كالـسقم في أعـضائي
والبحـر خفـاق الجوانـب ضـائق

كمـــــدا كـــــصدري ســـــاعة الإمـــــساء

ومنهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي، الذي عاش أضواً أيامه وأحلكها في الإسكندرية، وله فيها مئات القصائد، ومنها هذه القصيدة بعنوان (الإسكندرية):

وتغـــــرد الأطيـــــار حتـــــي أنهـــــا
لـــــتظن في تغريـــــدها كمـــــلاك
مـــــن لم يـــــصدقني، عليـــــه بجولـــــة
بحـــــدائق الـــــشلال بـــــين أراك
لـــــيري ضروب روائـــــع وبـــــدائع
هـــــذي موطنـــــة وذي لحـــــراك
ولـــــديك مـــــن فـــــتن الحـــــسان نـــــوادر
بقيـــــت عـــــلى الأحقـــــاب صـــــنو جنـــــاك
زرق العيـــــون وســـــودهن عـــــوارف
صـــــيد القلـــــوب بأســـــهم وشـــــباك
أورثـــــن ســـــحر الأقـــــدمين كـــــأنما
بـــــوركن بالكهـــــا مـــــن تحـــــت ســـــماك

ومنهم الشاعر المبدع خليل شيبوب، تلميذ مطران... ومنهم الشاعر الراحل عثمان حلمي، صاحب الدواوين والرباعيات والمسرحيات، وكان رحمه الله يعشق الإسكندرية ويكره من أجلها القاهرة، إلى حد أنه لم ير القاهرة في حياته إلا مرة واحدة، اضطرارا، حين أحيل إلى المعاش، وجاء إلى القاهرة لتسوية معاشه!

ومن شعرائها الأحياء، المخضرمين والمحدثين، الأساتذة : عبد اللطيف النشار وإدوارد سعد وحسن ظاظا وعبد العليم القباني ومحمد محمود زيتون وأحمد الجارم ومرسي بدر وغيرهم ممن يستوحون بدائعهم من عيون بنات بحري لتزدان بها جزيرة الإسكندرية الخالدة.